الباب السابع

الملاحق التاريخية

الملحق الأول:

من المرجع (١٩) الجزء السادس ص١٢٨-ص١٥٧
(عن الوضع الاجتماعى فى الدولة العباسية من عام ٣٢٠هـ
وحتى سقوطها عام ٦٥٦هـ -١٢٥٨م)

الفصل السابع

فى الوضع الاجتماعى

١ - السكان: برز بين سكان الإمبراطورية الإسلامية فى هذا العصر، عنصر جديد هو عنصر الأتراك، وقد كان لهذا العنصر أثر كبير فى حياة الأمة الإسلامية وتاريخها، وكان مبدأ ظهور هذا العنصر على مسرح الحياة العباسية منذ زمن المعتصم فقد استقدم سنة ٢٢٠هـ قوما من بخارى وسمرقند وأشرو وغيرها من بلاد ما وراء النهر فألبسهم ثياب الديباج ومناطق الذهب وسلطهم، وأخذ يزيد عددهم حتى صاروا ثمانية عشر ألفا (٦١: ٢ / ٢٣٣)، فاضطر أن يخرج بهم عن بغداد، حتى أكثر الناس من التهجم عليهم وعليه قال دعبل يخاطب المعتصم فى ذلك:

لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم	وصيف وأشناس وقد عظم الخطب
وإنى لأرجو أن ترى من مغيبها	مطالع شمس قد يغص بها الشرب
وهمك تركى عليه مهانة	فأنت له أم وأنت له أب

وأخذ الناس يضعون الأحاديث على لسان النبى وصحابته فى ذم وجوههم المجان المطرقة (٦٢: مادة (تركستان). وغير ذلك من الأحاديث التى تدل على مقدار كره الناس لهم حتى صاروا يحنون إلى أيام سيطرة الفرس وصرنا نسمع شاعرا كالبحترى يقول:

أتسلى عن الخطوب وآسى لمحل من آل ساسان درس
ذكرتنيهم الخطوب التوالى ولقد تذكر الخطوب وتنسى
أيدوا ملكنا وشدوا قواه بكماة تحت النور حمس
وأراني من بعد أكلف بالـ أشراف طرا من كل سنخ وأس

وليس البحترى فى هذه القصيدة شعوبيا، ولكنه رأى سوء حال البلاد فى عصر الأتراك فتأسف على عهد الفرس.

أما الفرس فى هذا العصر فقد رأوا أن مكانتهم فى الدولة قد انحطت فأخذوا يوجهون قواهم إلى الاستقلال ببلادهم عن جسم الدولة مثل مرداويج الزيارى، وطاهر بن الحسن، ويعقوب الصفار والساماني، وابن بويه، وصار شعراؤهم وكتابهم يعلنون سخطهم لهذا العهد كمهيار الديلمى وحمزة الأصفهانى. وأما العرب فقد رأوا تسلط الترك أيضا بعد تسلط الفرس، فانطووا على أنفسهم، ورجعوا إلى قبائلهم يستعينون بهم على إيجاد سلطة لهم، فلما قووا أخذوا يحتلون القلاع ويؤسسون الدويلات كالعقيليّين والحمدانيين والمرداسيين والمزيدين، وقد نبغ منهم شعراء اعتزوا بعروبتهم كالمتنبى والمعرى وابن أبى حصينة. (انظر ديوانه الذى نشرناه مع شرح أبى العلاء المعرى عليه فى المجمع العلمى العربى)

هؤلاء هم سكان الإمبراطورية الإسلامية وهناك بعض العناصر الأخرى (كالروم) من مسلمين ونصارى ولم يكن لهم نفوذ عسكرى، أما فى النواحى الثقافية والاجتماعية فقد لعبوا دورا هاما نذكر منهم، ابن الرومى الشاعر، وابن جنى النحوى وغيرهما، و(كالسودان) من زنج وأحباش وقد لعبوا دورا هاما فى الحياة الإسلامية وكانوا يجلبون من إفريقيا أرقاء فيخدمون فى الأرض والبيوت وكان لهم آثار فى البيت الإسلامى والبيئة الإسلامية وكما لا ننسى حركتهم فى البصرة، وما أعقبها من فتن ومشاكل. و(كاليهود) و (النصارى) المنتشرين فى أرجاء الدولة، وكانوا يمتهنون الجهبذة والصياغة والصيرفة والحساب والطب والصيدلة.

٢ – تبع الانحلال السياسى انحلال خلقى بارز. فكثر شرب الخمر، وجاهر الناس به، ولم يعد للخليفة ولا للقاضى ولا المحتسب تلك الهيبة التى كانت له من قبل. وفشا الزنا فى الناس عامتهم وخاصتهم، وعمت الموبقات الأخرى، وتناقش الفقهاء فى هذا العصر فى اللواط، واختلفوا فى أمره، فأراد بعضهم أن يعتبره مثل الزنا يرجم صاحبه ويقتل، وقال آخرون: لا، بل يعزر إذا فعل بغلامه المملوك ويحد إذا كان بغيره.(٦٣: ٣ / ١٨).

ويقـول المستشـرق ميتز في كتابه (الحضارة الإسـلامية في القرن الرابـع ٢/١٣٥): إن هذا اللواط أتى من الشـرق مع جيوش العباسـيين الذين جاؤوا من خراسـان، على أن بلاد الأفغان كانت مشـهورة بذلك في القرن الثالث والرابع للهجرة، ثم سـارع واسـتقر فـي القرن الرابع.

ويذكر الثعالبي (٦٤: ١ / ٤٨٣): «أنه كان على شاطئ دجلة مكان للهو فيه إلى جانب الخمّار والخمـر (ظبـي غرير) أو (ظبية غريـرة). وقاصده لا يدفع لهذا كله فـي الليلة إلا درهمين وقد اتخـذ المجان بعـض الأديرة مواطن لعبثهم ولهوهم، كما نجد ذلـك مفصلا في كتاب الديارات للشابشـي، وقد عمّ البلاء بهذا الداء بالزنا والفسـق وشـرب الخمر في بغداد إلى درجة اضطرت الفقهاء الحنابلة إلى الثورة لمطاردة هؤلاء الفسـاق، وكسـر أدوات الغناء ودنان الخمر، وتخريب دور اللهو والمجانة. (٦٥: ٨ / ٢٢٥) وفي سنة ٣٢١هـ أمر الخليفة الظاهر بتحريم الخمر والغناء وسـائر الأنبذة وأمر ببيع الجواري المغنيات، على أنهن سـواذج لا يعرفن الغناء، ثم وضع من يشتري له كل حاذقة في صنعة الغناء فاشترى منهن ما أراد بأرخص الأثمان. (٦٥: ٨ / ٢٠٤)

ومن مظاهر الانحلال الاجتماعي ما يحدثنا به المؤرخون من وقوع بعض الأعمال الوحشية مـن فظاعات التعذيب والقسـوة وامتهان الكرامة على الخوارج وأصحـاب العقائد المخالفة لمذهب الحاكم، فقد روى صاحب زبدة الفكرة (مخطوط باريز ٥ – ١٧٩): أن الحسـين بن حمدان القرمطي وابنه حين قبض عليهما مؤنس وجاء بهما إلى بغداد ألبسا برانس طوالا من اللبود وقمصانا من الشعر الأحمر. وقال المسعودي (٦٦: ٨ – ١٦٩): «لما قبض على القرمطي ببغداد ألبسـوه درّاعة وديباجـا وبرنس خزّ طويل». ويقول عريـب (في ذيله على الطبري ص٥٧): «إنهم ألبسوه برنسا طويلا بشفاشج وجلاجل». وقال ابن الأثير (٦٥: ٨ – ٢٠٥): «بل ألبسوه برنسا بأذيال الثعالب». وقال مسكويه (٦٧: ٦ – ٥٠١): «بل برنسا طويلا كما يلبس النسـاء». ولما هزم ابن أبي الساج وأدخل بغداد ألبس برنسا طويلا بشفاشج وجلاجل وحمّـل على الفالج. وقد ذكر عريب (في ذيله على تاريخ الطبري) أن الناس لما رأوه كذلك استاءوا. ولما اتهم الحلاج الصوفي بالكفر صلب حيا إلى أن مات، وهي من أفظع العقوبات.

وقد ضاعت المثل الأخلاقية، ودرسـت المبادئ الإسـلامية فأهين الخليفة، وسـقي السـم، وسملت عيونه، وضرب وجر برجله وعذب وشتم وحبس حتى يموت جوعا وعطشا. (انظر الفظائع المشينة التي أجريت في تعذيب المعتضد والقاهر في كتاب (مسكويه) ٥ / ٤٤٦.)

ولاشك أن هذا كله آتٍ من الانحلال الخلقي والنفسي.

٣ – الأســرة: تكلمنا فى الكتاب الأول عن شــىء من أحوال الأسرة فى العصر العباسى الأول وعــن دخــول العناصر غــير العربية من فارســية ورومية وحبشــية وتركية إلى البيت الإســلامى، وعن انحطاط الأسرة واضطراب شأنها بذلك الخليط من الجوارى. ونضيف هنا أن البيت الإسلامى أضحى يعج بالزوجات المتعددات، عدد غير محدود من السريات، وقد تبع الناس فى ذلك خلفاءهم، فقد عج قصر الخلافة فى هذا العصر، بعدد كبير من الجوارى والخصيــان حتــى صار الخلفاء كلهم إلا قليلا أبناء جــوار، قال ابن حزم فى نقط العروس: «لم يــل الخلافة فى الصدر الأول من أمه أَمةٌ حاشــا يزيــد وإبراهيم ابنى الوليد، ولا وليّها من بنى العباس من أمه حرّة حاشــا الســفاح والمهدى والأمين» (٦٨: ص ١٢٤)، وإذا كان هذا حال الخلفاء، فما قولك بأســر الوجوه والأعيان، أما الســوقة والرعاع فقد تاهوا فى تلك البيئــة المنحلة المضطربة، وممــا يجب أن نلاحظه هنا أن الجوارى فى هذا العصر قد كثرن وصــارت لهم دور للهو والفســق، ويقول أبو حيان التوحيــدى (٦٩: ٢ / ١٨٣): «أحصينا ونحن جماعة فى الكرخ أربعمائة وستين جارية فى الجانبين، ومائة وعشرين حرة، وخمسة وتسعين من الصبيان من البدور، يجمعون بين الحسن والحذق والظرف والعشرة، هذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزته وحرسه ورقبائه، وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء والضرب إلا إذا نشط فى وقت، أو ثمل فى حال، أو خلع العذار فى هوى قد حالفه وأضناه». ونحن نرى فى هذا سر انحطاط المجتمع وفساد الأسرة، وإلا ما معنى وجود هؤلاء (الصبيان البدور) الخمسة والتسعين الذين ذكرهم أبو حيان التوحيدى ووصفهم أبو حيان فى موضع آخر فقال: «خمســة وتسعون غلاما جميلا يغنون للناس (٦٩: ٢ / ١٧٤)، وإنه كان بها غلام موصلى ممن ملأ الدنيا عيارة وخسارة. وافتضح أصحاب التستر والوقار، وأصناف الناس من الصغار والكبار بوجهه الحســن وثغره المبتســم وحديثه الساحر وطرفه الفاتر وقده المديد، ولفظه الحلو ودله الخلوب... يسرقك منك ويردك عليك... فحاله حالات، وهدايته ضــلالات، وهو فتنة الحاضر والبــادى». وقد تفنن القوم فى أسماء هؤلاء الغلمان فســموهم الأســماء المخنثة مثل: نســيم ومؤنــس ووصيف وفاتن وجميلة (لغلام ذكر) ولاشــك فى أن هذا كان انحطاطا وانحلالا لأفراد الأســرة ما بعده انحطاط وأبو حيان حجة فى قوله أمين فى نقله. وفى هذا العصر نبغ فى بغداد شــعراء فســقة مجان غطوا على أبى نواس وفســقه وعهره وبزّوه، ولم يتركوا فى هذا الحال مزيدا لمستزيد وعلى رأسهم ابن حجاج وابن سكرة الشاعران الفاسقان العاهران اللذان مُلئ شعرهما قحة وسوء خلق عجيبين.

٤ – **المســكن:** تحدثنا فى الباب الخاص بالمسكن فى الكتاب الأول عن شيء من البيت العربى وطرزه وأوضاعه، ونضيف هنا أن حفائر مدينة سـامراء قد كشـفت لنا، كما يحدثنا الأسـتاذان الأثريان «سـارة»، و «هرتسفيلد» عن طريقة بناء المسكن العربى فى القرن الثالث حيث يقول: «كانت الدور تُبنى على مثال واحد يصل بينها وبين الشـارع أو الدرب دهليز مسقوف يفضى إلى صحن واسع قائم الزوايا، يبلغ عرضه ثلثى طوله فى العادة، ويتصل له مـن جانـب العرض القاعة الكبرى وصورتها هكـذا (   ) وفى أركانها غرف صغيرة ويحيط بالصحن أيضا غرف متجاورات مربعة للسـكنى وللحدائق المنزلية أيضا، ولا تخلو الدور قط من حمامات ومجار تحت الأرض، وكثيرا ما يكون فيها آبار وتشـتمل أحيانا على صحون ذات طارمات وعلى سراديب للسكنى مهيأة بوسائل التهوية، والدور كلها من طابق واحد، وإذا كانت الأرض المحيطة بها غير مسـتوية اتخذ منها أصحاب الدور مسـطحات مرتفعة بمهـارة، وقـد تبلغ الغرف فى الـدار الواحدة (٦٠) غرفة، وبها شـبابيك تقفل بألواح من الزجاج المتنوع الألوان، ويتراوح عرض اللوح بين (٢٠) و (٥٠) سنتمترا، وهكذا كانت قصور الخلافة إلا أنها أوسع وأضخم وأفخم»، ويقول الاصطخرى: (ص ٨٣) نقلا عن رجل زار دار الخلافة عامرها وغامرها حوالى أواخر القرن الرابع. فقال: «إنها مثل مدينة شيراز، وكانت زخارف هذه القصور فائقة حد الوصف من رياض وأشجار وزينة وأزهار وفرش وتحف، ومن أروع هذه التحف ما كان فى قصر المقتدر من تحف أجلها الشـجرة الفضية التى كان وزنها خمسمائة ألف درهم، وهى تقوم وسط بركة مدورة صافية الماء، وللشجرة ثمانية عشر غصنا، لكل غصن شـاحنات كثـيرة عليها الطيور والعصافير من كل نـوع مذهبة ومفضضة، وأكثر قضبان الشـجرة فضة وبعضها مذهب وهى تتمايل فى أوقات لها. وللشـجرة ورق مختلف الألوان يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجر. وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر، وقد أدخل الخليفة رسل الروم إلى هذه الدار فكان تعجبهم منها أكثر من تعجبهم من جميع ما شاهدوه (Ester Vorlaufiger: Bericht die ausgrabungen Von sammarra)

٥ – **الطعام والشـراب:** ذكرنا شـيئا من هذا فى الفصل الخاص به فى الكتاب الأول ونضيـف هنـا أن الترف والرفاهية، قد ازدادت على سُـفَر الأغنياء، وجعلـوا لذلك آدابا وتقاليـد، فقـد روى الثعالبى عن أبـى رياش أنه كان آية فى حفظ أيام العرب وأنسـابها وأشـعارها ولكنه كان وسخ اللبسـة قليل التنظيف شرها على الطعام، سيئ المؤاكلة، دعاه

والى البصرة أبو يوسف اليزيدى إلى مائدته يوما، فلما أخذ فى الأكل مد يده على بضعة لحم فانتهشـــها ثم ردها إلى القصعة فكان بعد ذلك إذا حضر مائدته أمر أن يهيأ له طبق ليأكل عليه على حدة (٦٤: ٢ / ١٢٠) ولا شك فى أن هذه الآداب والتقاليد الطعامية، قد دخلت بيــوت الأعيان والطبقة البرجوازية، كما أن الغاية بتنويع الطعام قد بلغت أوجها فى ذاك العصر، فقد روى أن ابن مســكويه خازن كتب عضد الدولة البويهى ألف كتابا فى تركيب الباجات من الأطعمة، وأنه أحكمه غاية الإحكام وأتى فيه من أصول علم الطبخ بكل غريب حسن (٧٠: ص ٣٣١)، أما الحلوى فقد تفننوا فيها تفننا لا من حسن الطعم بل من حسن الشــكل والصورة، ففى ديوان المتنبى (ص ١٨) مقطوعة لطيفة قالها فى شــكر رجل أهدى إليه سمكا مصنوعا من الســكر واللوز مطبوخا بالعســل. وكما أننا نجد فى هذا العصر آدابا وتقاليــد، كان أهل الظرف والترف يتقيدون بها، وقد أحصاها الوشــاء فى كتابه الطريف «الموشى» وفيه فصل لنا آداب مجالس الشراب وآداب موائد الطعام، كما يحدثنا أنهم كانوا يكرهــون أنواعا من الأطعمة، ويبتعدون عن طعامها مثل الهندباء والفجل والحرف لنتنها، والكراث والبصل لرائحتها، والثوم والبصل لمغبة أكلهما. كما أنهم كانوا يمتنعون عن أكل الزيتون والتمر والمشمش والنبق والصاب والخوخ والأجاص وغيرها مما له نوى لما فى إخراج نــواه أمام الحاضرين من نقص فى المروءة، وأنهم كانوا لا يأكلون السمســم المقلى والزبيب الأسود، لأنهم يشبهونه بالبعر، ولا الباقلى والبلوط والخرنوب الشامى وغير ذلك مما يرون فى أكله على مجالس الشــراب نقصا فى آداب الشــراب. وإنما كانوا مع الشــراب مملوح البندق ومقشر الفستق وتفاح الشام وسفرجل بلخ وقصب السكر المغسول بماء الورد ويطيبون مجالسه بالعود الهندى والطين الخراسانى، والملح الصنعانى (٧١: ص١٣٠ - ١٣٣) ولاشك فى أن هذا كان نوعا من الرفاهية والترف لم تصل إليه مجالس اللهو والشــراب فى أرقى عصورها فى أوربا.

٦ - **مستوى المعيشة**: لا نعرف شيئا حقيقيا عن مستوى المعيشة فى هذا العصر، وعن أحوال الطبقات فيه غير أنه لا شك فى أن الناس يمكن تقسيمهم إلى خمس طبقات:

١ - الحكام من خليفة وسلطان وأمير وعامل ومن إليهم.

٢ - طبقة كبار التجار والزراع والملاكين والموظفين البارزين ومن إليهم.

٣ - طبقة عامة التجار والزراع وكبار السوقة، والجنود المرتزقة.

٤ – طبقة العامة من صغار السوقة وعمال الحوانيت والباعة والكتبة والمحترفين والفلاحين ورجال العلم.
٥ – طبقة المكدين والمتصوفة والمتفقهة.
١ – أما أهل الطبقة الأولى فقد كانت مواردهم الواسعة سببا فى أن يحيوا حياة بذخ وترف لا حد لهما. فقصورهم تعج بالخدم والحشم والرقيق والطرف والتحف، أما ما ينفقونه على بناء قصورهم فشيء لا يصدق.

قالوا إن المتوكل بنى قصره (العروس) بثلاثين مليون درهم، و(الجعفرى) بعشرة ملايين و(العزيب) بعشرة أيضا و(الشيدان) بعشرة كذلك و(البرخ) بعشرة أيضا، و(الصُبح) بخمسة ملايين... إلى آخر، ما يرويه مؤرخو العصر عن قصور هذا الخليفة.

٢ – وأما طبقة كبار التجار والزراع والملاك والموظفين، فكانت كذلك طبقة مترفة لا تقل فخامة قصورها ورياشها من قصور الطبقة الأولى نذكر من هؤلاء آل الجصاص التجار الجوهريين الذين بلغت ثروتهم حدا مدهشا (انظر فوات الوفيات ١ / ١٣٨)
٣ – وأما طبقة عامة التجار والزراع وصغار الملاكين والموظفين فكانت أحوالهم متوسطة يتبلغون هم وأهلهم بطعام جيد. وسكن حسن وخدم محدودين.
٤ – وأما طبقة العامة من صغار السوقة والباعة وعمال الحوانيت والباعة والكتبة والمحترفين والفلاحين فإنهم كانوا يعيشون فى شدة وضنك على الرغم من تعبهم وكدهم. لأن الطبقات الثلاث الأولى استنزفت موارد الدولة واستغلت خيراتها. وليست لدينا معلومات عن مقدار موارد هؤلاء البؤساء، ولكنا عثرنا على بعض النتف التى تعطينا صورة عن حالهم ومقدار ما كانوا يتبلغون به فقد روى التنوخى (٧٢: ٢ / ١٥٥): «أن رجلا فقيرا جاء إلى البصرة فى القرن الرابع وطلب عملا من صاحب حانوت فاستخدمه الحانوتى كاتبا لحساباته مقابل نصف درهم فى اليوم إلى طعامه وكسوته ثم زيدت الأجرة إلى درهم فى اليوم». ويقول مسكويه (٦٧: ٢ / ١٩٨) فى سنة ٣٥٢هـ: قال إن أبروتها الطبيب كان يدور من باب إلى آخر ليعالج المرضى. ويأخذ دانقا ونصفا أو ربع درهم عن كل مريض». فإذا كان هذا حال كاتب الحسابات والطبيب، فما قولكم بالعمال والفلاحين والباعة المتجولين.

أما رجال العلم فقد وضعناهم فى عداد هذه الطبقة لأنهم كانوا دوما فى شر حالة، فكتب الأدب والتاريخ والطبقات مليئة بأخبار هؤلاء البائسين، وإليكم ببعض النتف التى تؤيد ما ذكرناه:

كان أبــو حيان التوحيدى الإمام الأديب الكاتب الفيلســوف البليغ الصوفى يعيش من نســخ الكتب والوراقة والتأليف وإليــك وصف حاله: «ولقد اضطررت بينهم بعد العِشْــرة والمعرفــة فى أوقات كثيرة إلى آكل الخضر فى الصحراء، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى الدين والمروءة، وإلى تعاطى الرياء بالســمعة والنفاق، وإلى ما لا يحســن بالحر أن يرسمــه بالقلــم» (٦٩: ١ / ٣١)، وقد مــلأ كتبه (الإمتاع) و (الصداقة) و(المقابســات) بشكوى الزمان من سوء الحال والفقر، واضطر آخر عمره – ولاشك فى أنه أصيب بنوع من الجنون – إلى أن يحرق كل كتبه.

وكان أبو على القالى الإمام اللغوى الأديب، يشــكو البؤس والفقر فلا يجد أحدا يعطيه حتى اضطر أن يبيع كتبه ليعيش، ثم عزم أن يهاجر إلى الأندلس فهاجر إليها ولقى الحياة الهنية بقرب أميرها الكريم الحكم الأموى.

وكان الفقيه الشــاعر اللغوى الأديب الأبيوردى مضرب المثل فى البؤس والحاجة، وقد حكى عنه الخطيب البغدادى أنه مكث سنتين لا يقدر على شراء جبة يلبسها فى الشتاء.

وهناك مئات من الآدميين ومن العمال والفلاسفة والأطباء وأهل الحكمة والفن عاشوا فى شــظف وبؤس ما بعدهما مزيد، ونختم هذا الكلام بهــذه القصة، بل الفاجعة التى يرويها أبو حيان فيقول:

«شــاهدنا فى هذه الأيام شــيخا من أهل العلم ساءت حاله وضاق رزقه واشتد نفور الناس عنــه، ومقــت معارفه له؛ فلما تــولى هذا عليه دخل يوما منزله ومد حبلا إلى ســقف البيت واختنق به، فلما عرفنا حاله جزعنا وتوجعنا وتناقلنا حديثه وتصرفنا فيه» (٧٣: ص ٢١٩)، وهــذا بــلاء ما بعده بلاء، والحق أن العلماء كانوا نوعين (نــوع) تمكن من الاتصال بالخليفة أو السـلطان أو الأمــير، أو بعض رجــال الدولة، أو الأغنياء الرحماء فهم فى حالة ميســورة بــل ربما بلغوا طبقة الأغنياء، ولكنهم قلة. و(نــوع) لم تمكنه ظروفه من الاتصال بالخليفة، أو رجال دولته، أو أنهم لم يرضوا ذلك، فهم فى بؤس وعنت أو فى كفاف وتقشف.

٥- طبقــة المكديــن والمتصوفــة والمتفقهة: كان المكدون من شــحاذين محترفين أو بؤســاء عاجزين أو مقعدين يعيشــون من صدقات الناس وإحسانهم، وكانوا يتخذون المساجد والطرقــات العامــة وأبواب المســاجد والحمامات محلات لهم، يســألون الناس فيها الإحســان والتصدق، وكان العربى يأنف من أن يهوى إلى هذه الطبقة، بل يفضل أن يرجع إلى البادية يسرق أو يغزو.

أما المتصوفة والمتفقهة فهم الذين كانوا يعيشــون من ريع الأوقاف وإحســان المحسنين ويقنعون بما يرد إليهم. من جامكيات الأوقاف، وأعطيات المحســنين، وقد ظهر في هذا العصر نوع من (الزوايا) التي يجد فيها المتصوف حاجته و (المدارس) التي يجد فيها الفقيه طعامه وشرابه ولباسه.

عصر السقوط

من سنة ٤٢٢هـ - إلى سنة ٦٥٦هـ

الفصل الأول

عرض موجز لشؤون الخلافة وأحوال الخلفاء من عهد القادر إلى عهد المستنصر آخر الخلفاء

وقــف بنا الكلام في عرضنا لشــؤون الخلافة وأحوال الخلفاء، فــي الكتاب الثاني عند نهايتــه عن الخليفــة القادر أبي العباس أحمــد، ورأينا أنه كان من أفاضل الخلفاء حســن الطريقــة وأنــه أراد إرجاع مظاهر العزة للخلافة، ولكنه لم يفلح إلاّ بعض الشــيء. فحييت رسوم الخلافة ورجع وقار الدولة، لطول عهده ولكن تلك الحياة كانت صحوة الموت كما قلنا.

ولما مات في سنة ٤٢٢هـ بويع ابنه عبد الله جعفر وتلقب بالقائم بأمر الله، وكان حسن الطريقة كأبيه، صالحا عاقلا، فاستطاع أن يتم خطوة أبيه فأمر بالمعروف وعدل في الناس. وكان ســلطان العراق في عهده جلال الدولة البويهي، ولم يكن هذا حازما، فشــغب عليه جنوده، واضطرب أمر السلطنة، فاضطرب أمر الخلافة معها تبعا، وعاث الجنود الفساد في البلاد والقرى، حتى في ممتلكات الخليفة فلم يســتطع الســلطان أن يمنعهم، وانتشر البدو في البلاد يفسدون وينهبون. فلما مات جلال الدولة تسلطن ابن أخيه أبو كاليجارين سلطان الدولة، ولقبه الخليفة بمحي الدولة (الدين)، ولم تكن حال البلاد في عهده خيرا من حالها في عهد عمه إلى أن مات، فخلفه ابن خســرو فيروز الملك الرحيم، ولم يكن خيرا من ســلفه إلى أن طرده طغرل بك السلجوقي وقضى على دولة آل بويه، وابتدأت دولة آل سلجوق.

وتفصيــل ذلك أن حالة العراق قد ســاءت في أواخر عهد خســرو فيروز، حتى إن أبا الحارث أرسلان البساسيري أحد مماليك بهاء الدولة البويهي قد قوي نفوذه وأراد أن يزيل

الخلافة العباسية وكاتب الخليفة المستنصر الفاطمي صاحب مصر بذلك، ولما علم الخليفة في بغداد بهذا، كتب إلى طغرل بك يستغيث به، فقدم هذا على بغداد في محرم سنة ٤٤٧هـ وأسر فيروز، أما البساسيرى فقد فر وأخذ يجمع جموعه لاسترداد بغداد فبعث إليه طغرل بك ابن عمه قتلمش فتغلب البساسيرى، واضطر طغرل بك أن يقابله بنفسه، والتقى جمعاهما وانهزم البساسيرى، وسيطر طغرل بك على الديار الموصلية، ثم رجع إلى بغداد سنة ٤٤٩هـ، وقابل الخليفة ففوض إليه إدارة البلاد وخلع عليه سبع خلع، وتوجه وعممه ولقبه بملك المشرق والمغرب، فقبل يد الخليفة مرتين، وبالغ في احترام الخليفة.

وفي سنة ٤٥٠هـ بينما كان السلطان طغرل بك غائبا عن بغداد، استطاع البساسيرى أن يدخلها بجنده ويخطب للمستنصر العلوى، واضطر القائم إلى الهرب واللجوء إلى مهارش بن مجلى العقيلي في حدثيه عانة فأكرم وفادته. أما البساسيرى فإنه تسلط على بغداد وسار بالناس سيرة حسنة وامتد نفوذه على واسط والبصرة حيث خطب للمصريين أيضاً.

وفي سنة ٤٥١هـ توجه طغرل بك إلى بغداد فهرب البساسيرى منها، وبعث السلطان الإمام أبا بكر أحمد بن محمد المعروف بابن فورك إلى قريش بن بدران يشكره ويستدعى الخليفة، ولما وصل الخليفة إلى النهروان خرج طغرل بك لاستقباله ودخلوا بغداد جميعا في أواخر سنة ٤٥١هـ وأنفذ السلطان جيشا لملاحقة البساسيرى فأمسك به وقتله شر قتلة، ثم رجع السلطان إلى الرى عاصمة ملكه، وأقام فيها نائبا سماه (الشحنة) بعد أن تزوج السلطان بابنة الخليفة ومات بالرى في سنة ٤٥٥هـ.

ولما مات خلفه عضد الدولة أبو شجاع ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، وكان أميرا حازما عاقلا مدبرا، استعان بالوزير العظيم نظام الملك الطوسى على إدارة دولته، فصدقه نظام الملك في الخدمة وحسنت الدولة في أيامهم، ولما مات ألب أرسلان خلفه جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه، ولأوائل حكمه توفي الخليفة القائم في ١٣شعبان سنة ٤٦٧هـ.

خلف بعد القائم حفيده أبو القاسم عبد الله بن الذخيرة أبي العباس محمد ابن الخليفة القائم ولم يكن للقائم من أعقابه ذكر سواه. فإن (الذخيرة) مات أيام أبيه. وكان للذخيرة جارية أرمنية فولدت بعد موت سيدها بستة أشهر غلاما سماه جده عبد الله وولاه عهده وأحسن تربيته ورعايته، فشب قوى النفس، متين الخلق، عظيم الهمة، أحسن إدارة

البلاد، ومنع الفتيات المفسدات من البغاء في بغداد، وأشرف على أمور الناس بنفسه، فحسنت الأحوال، لأنه كان حسن السيرة، ذا فضل وحزم وعفة وجهاد أيضا، فتوسعت رقعة البلاد في عهده وامتدت من الصين إلى اليمن ووضع في النواحي التي افتتحها وخطب للخليفة فيها من بلاد الروم خمسين منبرا.

وامتد سلطانه إلى سمرقند والمشرق وما ذلك كله إلا لحسن إدارته وبراعة سياسته واستماعه لإرشادات الوزير الصالح العالم نظام الملك، فلما مات ملكشاه وكان له بنون أربعة، بركياروق، ومحمد، وسنجر، ومحمود، وهو طفل، فطلبت أمه من الخليفة أن يسمي ولدها للسلطنة فأجابها، إلا أن جنود نظام الملك سلطنوا بركياروق وبعثوا إلى الخليفة تقليد السلطنة فمات فجأة والتقليد بين يديه في ١٥محرم سنة ٤٨٧هـ فلم يتم ذلك. وخلفه ابنه أحمد المستظهر بالله، وكان صالحا عادلا حسن الأخلاق طيب السيرة وكانت أيامه أيام هدوء وسكينة، لولا فساد السلطان بركياروق، إذ لم يكن حسن الإدارة، فاختل أمر السلطنة في عهده، وطمع عمه تتش ابن ألب أرسلان صاحب دمشق بالسلطنة وجرت بين الاثنين معارك، إلى أن مات العم، فصفا الجو لبركياروق واستقامت أموره بإدارة وزيره العاقل مؤيد الملك عبد الله بن نظام الملك وكان حازما عاقلا مدبرا، ولما مات مؤيد الملك عادت الفتن بين بركياروق وأخيه محمد، واتقدت نيران الحرب بين أفراد آل البيت السلجوقي من سنة ٤٩٢هـ إلى سنة ٤٩٧هـ، وفي هذه الفترة تحرك الفرنج لأول مرة مغيرين على المملكة الإسلامية، ثم مات بركياروق سنة ٤٩٨هـ فتسلطن أخوه محمد إلى سنة ٥١١هـ ثم تولى ابنه مغيث الدنيا والدين محمود بن محمد بن ملكشاه ولقبه الخليفة المستظهر (يمين أمير المؤمنين) وخطب له ببغداد في ١٣محرم سنة ٥١٢هـ ولم يلبث الخليفة طويلا بعد محمد بن ملكشاه حتى مات في ١٦ربيع الآخر سنة ٥١٢هـ، وفي عهد المستظهر حدثت في الدولة أحداث جليلة في الشرق والغرب. أما الشرق فقد ظهرت فيه الباطنية بشكل رهيب. أما في الغرب فقد بدت فيه بوادر الحروب الصليبية.

ولما مات خلفه ابنه المسترشد بالله أبو منصور الفضل في ١٦ربيع الآخر سنة ٥١٢هـ وكان رجلا فاضلا، وكان سلطان العراق في عهده هو السلطان محمود بن محمد وكان السلطان سنجر بن ملكشاه ملك خراسان وما وراء النهر وهو زعيم البيت السلجوقي. فلما مات أخوه محمد طلب من الخطباء أن يذكروا محاسن أخيه في خطبهم ويبينوا أعماله

فى قتال الباطنية، وكان يلقب بناصر الدين فاستبدله بمعز الدين وعزم على قصد الجبل والعراق ووقعت عدة معارك بين السلطان محمود وعمه سنجر، ثم بين السلطان وبين أخيه مسعود صاحب الموصل وأذربيجان، وكان الخليفة المسترشد قد استعاد شيئا من نشاط الخلفاء العباسيين الأولين فقاد بعض الجيوش لمحاربة مخالفيه، مثل دبيس بن صدقة صاحب الحلة ولكن السلطان مسعود لم يستحسن ذلك الأمر، وأفضى الحال إلى الحرب بينهما، فتقدم الخليفة جيشه لقتال مسعود ولما كسر جيش الخليفة ووقع الخليفة أسيرا، وبلغت هذه الأخبار السلطان سنجر كتب إلى مسعود يأمره بأن يتلافى الحال ويعتذر إلى الخليفة، ويرده إلى بغداد معززا وبينما كان يهيئ أمر عودته على أحسن حال، هجم الباطنية على الخليفة فقتلوه فى سنة ٥٢٩هـ، ويقال إن الذى دفع إلى قتله هو مسعود (٧٤: ص ٢٦٥).

ولما قتل وبويع ابنه الراشد بالله أبو جعفر المنصور فى ٢٧ذى القعدة سنة ٥٢٩هـ عقب وصول الخبر بموت أبيه، جهز جيشا كثيفا لقتال مسعود ولكن مسعودا سبقه ودخل بغداد فكف الراشد وهرب إلى الموصل وجمع مسعود العلماء والوجوه وأخذ خطوطهم بالقدح فى الراشد، وخلعه ثم إن جماعة من الملاحدة والباطنية قتلوا الراشد فى أصفهان.

ولما خلعه ولِّى عمّه المقتفى لأمر الله أبا عبد الله محمد بن المستظهر فى ٨ذى القعدة سنة ٥٣٠هـ، واستمر مسعود فى سلطانه إلى أن مات سنة ٥٤٧هـ، وبموته أفل نجم السلاجقة، فقد خلفه ابن أخيه ملكشاه بن محمود ولم يكن ذا سياسة وإدارة؛ أما الخليفة فإنه لما بلغه موته، طرد بطانته السلجوقية من بغداد، واستولى على داره وجمع الأموال وجيش الجنود وبعثهم فاستولوا على الحلة وواسط. وتقسم الأمراء فى الأقاليم أملاك السلجوقيين فى (حصن كيفا) و(ماردين) و(دمشق) و(الموصل) و(حلب) و(سنجار) و(الجزيرة) و(إربل)، و(أذربيجان) و(فارس)، و(لورستان)، وقامت فى هذه المدن والأقاليم دول أو دويلات متعددة تقسمت أسلاب الدولة السلجوقية التى شادها طغرل بك وألب أرسلان وملكشاه ووزيرهم العظيم نظام الملك الطوسى.

واستمر المقتفى مستقلا بأمر العراق إلى ربيع الأول سنة ٥٥٥هـ حين مات، فخلفه ابنه المستنجد وكان حسن السيرة صالحا أزال المظالم ومنع الفساد وحل المقاطعات وأعادها إلى الخراج، وكان ملك السلاجقة بعهدة أرسلان شاه بن محمد بن ملكشاه، ولم يكن له نفوذ

في العراق، واستمر في حكمه إلى سنة ٥٦٦هـ حين خنق في الحمام، فخلفه ابنه المستضيء بالله أبو محمد الحسن وكان حسن السيرة عادلا كريما حليما وفي عهده قضي صلاح الدين ابن يوسف بن أيوب على الفاطميين في محرم سنة ٥٦٧هـ وخطب للمستضيء وظل كذلك إلى أن هلك.

ثم استخلف الإمام الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء في ذي القعدة سنة ٥٧٥هـ وكان إماما ذكيا سياسيا حازما عادلا بليغا عاقلا شجاعا مدبرا وهو أطول العباسين عهدا، فقد حكم ٤٦سنة وأحد عشر شهرا.

قال ابن طباطبا (٧٤: ص٢٨٠): «طالت مدته وصفا له الملك، وأحسن مباشرة أحوال الرعية بنفسه حتى كان يتمشى في الليل في دروب بغداد ليعرف أخبار الرعية». وفي أيامه انقرضت الدولة السلجوقية بالكلية.

وكان للناصر من أعمال البر والخير والعرفان ما يفوق الحصر، ومات في سنة ٦٢٢هـ، وفي عهده حدثت حوادث جسام كإغارة المغول والتتر على البلاد، فاستولوا على أقاليم المشرق من الصين إلى العراق، وعاثوا بالبلاد فسادا، والخليفة لا يستطيع الوقوف أمامه إلى أن أدركه أجله فمات في رمضان سنة ٦٢٢هـ.

فخلفه ولده أبو نصر محمد الظاهر بأمر الله في سنة ٦٢٢هـ ولم تطل أيامه ولم يكن في أعماله شيء ذو خطر ومات سنة ٦٢٣هـ فخلفه ولده أبو جعفر المنصور المستنصر بالله سنة ٦٢٣هـ وكان شهما جوادا عاقلا عالما فاضلا محبا للعمران وتأسيس دور العلم، وكانت أيامه طيبة، والبلاد هانئة، وفي عهده تم للمغول السيطرة على بلاد إيران إلى حدود العراق، والخلفاء ساكتون واجمون، والنكبة محدقة بهم، وفي سنة ٦٤٠هـ مات المستنصر فخلفه ابنه المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله آخر الخلفاء العباسيين على يد هولاكو المغولي وكان ذلك في ٢٠محرم سنة ٦٥٦هـ.

قال ابن طباطبا في وصف المستعصم الفخري «كان رجلا حرا متدينا، لين الجانب، سهل العريكة عفيف اللسان والفرج... قليل الخبرة بأمور المملكة مطموعا فيه... وكان زمانه ينقضي بسماع الأغاني والتفرج على المساخر، وبعض الأوقات بخزانة الكتب للتسلي، وكان أصحاب دولته من الجهال الأرذال إلا وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمي فإنه كان فاضلا عاقلا نبيلا، ففسدت الأمور واضطربت أحوال الدولة، وطمع فيها التتر، وكان جنكيز خان

قد هلك في ســنة ٦٢٤هـ - ١٢٢٧م في عهد الخليفة المســتنصر بعد أن اســتولى على أكثر بلاد المملكة الإسلامية في المشرق والمغرب فلما هلك اضطربت الدولة المغولية فترة، ثم أجمع قوادها وأمراؤها أمرهم على انتخاب آكتاي بن جنكيز خاقان عليهم في سنة ٦٢٦هـ فجهز جيشــا من ٣٠ ألف مقاتل ولي قيادته إلى شــير ماجون وبيدشــو لقتال السلطان جلال الدين منكوبرتــي ملك الدولة الخوارزمية فقضوا عليه (٧٥: ص ٢٤٥)، وكانت الدولة الخوارزمية حاجزا عن البلاد الإسلامية التي سيطر عليها جنكيز وبين الدولة العباسية فلما سيطروا على الدولة الخوارزمية، ســهل عليهم القضاء على أملاك الخلافة العباسية. ويظهر أن المسلمين قــد كانــوا يعرفون هذا، فقــد روى ابن تغري بردي «أن بعض الناس دخلوا على الســلطان الملك الأشــرف موسى صاحب دمشــق وهنأوه بمقتل عدوه، منكوبرتي فقال لهم: «تهنوني وتفرحون، وســوف تروون عنه، والله لتكونن هذه الكســرة ســببا لدخــول التتر على بلاد الإســلام، ما كان الخوارزمي إلا مثل الســد الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج، وهكذا كان، فإن مانجو خان (مانكو) الذي خلف آكتاي سنة ٦٤٩هـ جهز جيشين، أحدهما بقيادة أخيه كوبــلاي لإتمام فتح الصين، والثاني بقيادة أخيه الأصغــر هولاكو للقضاء على الإسماعيلية في فارس، والســيطرة على بغداد. فشرع هولاكو يجهز جيشــه ويعد العدة ويكاتب الملوك والأمراء المســيحيين وغير المســيحيين من أعداء خلافة بغداد للقضاء على الخليفة. وتمكن هولاكو في ســنة ٦٥٣هـ من السيطرة على بلاد الإسماعيلية واحتلال حصنهم (قلعة أَلمُوت) في ســنة ٦٥٤هـ ثم كتب إلى الخليفة المســتعصم في ٩ربيع الثاني سنة ٦٥٥هـ (٢١ أيلول سنة ١٢٥٧م) رسالة يدعوه فيها إلى الاستسلام والخضوع والحضور إلى حضرته لإعلان ذلك. فلم يهتم بالرسالة كما لم يهتم بأمر الدفاع عن بلاده على الرغم من تحذير وزيره ابن العلقمي له، فســارت جيوش المغول قاصدة العراق حتى طوقت بغداد ســنة ٦٥٦هـ، وأراد الخليفة في تلك الســاعة المصالحة والذهاب بنفســه إلى معسكر هولاكو مع أولاده الثلاثة ليسلم إليه بغداد التي أعمل فيها التتر التخريب والفســاد مدة أسبوع، على أن يؤمنه على أهله ونفسه بعد أن قدم جواهر الخلافة ونفائس المملكة إلى هولاكو فأخذ ذلك منه، ولم يمهله إلا عشرة أيام حتى قتله هو وابنه الأكبر في الرابع عشــر من صفر ســنة ٦٥٦هـ بعد أن كان خرج عن بغداد ومعه الخليفة فقتله في الطريق، رفسا على باب كلواذى.

وقــد حل ببغداد من التقتيــل وفظائع التتر أمور مخيفة أطنــب المؤرخون في وصفها، وإليك موجز ما يقوله الســيوطي (٧٦: ص ٣٦٣)، عن ذلك ، حين يذكر أنه قد قدر عدد مــن قتل مــن أهلها في الحصار وبعده ما يقرب من مليون نســمة، ولم يترك هولاكو أحدا

من العلماء والأمراء والحجاب وكبار الموظفين والتجار والوجوه والأشراف على قيد الحياة، ولم يسلم من أهل المدينة إلا من اختفى فى بئر أو فى قناة، وقد انتهبت دورها وقصورها وأرسلت نفائسها إلى أذربيجان وكان لسقوط بغداد أثر كبير فى خضوع أمراء آسيا الغربية مثل بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل والأتابك أبو بكر بن سعد صاحب فارس، وسلاجقة الروم، كما كان من آثار هذا السقوط أن انتقلت الخلافة العباسية إلى مصر.

الفصل الثانى

مظاهر الانحلال وأسباب السقوط فى الدولة

فسدت أمور الدولة العباسية فى هذه الفترة فسادا بارزا، وبخاصة فى الفترة الأخيرة منه. فقد كان الخلفاء منصرفين إلى توافه الأمور، أما تقوية كيان الدولة والتيقظ لما قد يصيبها من بلاء فقد كانوا فى معزل عنه، وكان السلاطين السلاجقة هم المفكرون بشؤون الدولة والبلاد، وقد عاشت البلاد فترات رخاء وأمن، حين كان السلاجقة أقوياء منصفين، فلما ضعفوا وظلموا فسدت الحالة وعم البلاء إلى أن كانت الكارثة العظمى، ويمكننا إجمال مظاهر الانحلال فى الدولة العباسية حين سقوطها بالنقاط الأربع عشرة الآتية:

أولا: سقطت مكانة الخليفة فى هذه الفترة، وذلت الخلافة ذلا واضحا فى أواخر عهد بنى بويه. وتسلط على الخلفاء مماليكهم. وعلى رأسهم البساسيرى مملوك بهاء الدولة بن عضد الدولة، وقد صور لنا ابن العميد فى كتابه (٧٧: ص ٢٧١) نفوذ البساسيرى وضعف الخليفة بقوله: «كان قد عظم قدره بالعراق واستفحل، فطار اسمه، وعظمت هيبته، وخافته أمراء العجم. وخطب له على العراق، ولم يبق للملك الرحيم بن بويه، إلا مجرد الاسم. ثم بلغ الخليفة القائم بأمر الله أن البساسيرى قصد دار الخلافة للقضاء عليه.... وقد استطاع أن يقضى عليه ويسجنه فى قلعة الحديثة. ثم استنجد الخليفة بطغرل بك السلجوقى لطرد البساسيرى فكان له ما أراد، وقد ظن أن سيطرة السلاجقة ستعيد له مكانته، وللخلافة سلطانها، ولكن ظنه خاب، فإنهم أعادوا له مظاهر الاحترام، واستبدوا بالأمر دونه، وأقطعوه بعض الأراضى ليستغلها.

ثانيا: لأن السلطان الأجنبى الذى كان يضفى عليها شيئا من المهابة، قد ضعف هو نفسه، وصار الأجناد من ديالمة وكرد لا يسمعون للسلطان البويهى، وقد رأينا أنهم لما أفسدوا بعض قرى الخلافة شكا الخليفة ذلك إلى السلطان جلال الدولة فلم يقدر أن

يصنع شيئا لضعفه، ولما سقطت الدولة البويهية وخلفتها السلجوقية استعاد الخلفاء بعض هيبتهم، حين كان السلاجقة أقوياء، فلما ضعفوا عادت الخلافة من جديد على الانحطاط والضعف. وهذا شأن كل من لا يعتمد على نفسه في حماية بلاده، بل ينتظر من الغريب أن يحميها عنه.

ولما ضعف السلاجقة وكان الخلفاء قد لاقوا من المهانة والمذلة ألوانا، عزم أحدهم أن يثور لكرامته ويعيد للخلافة مكانتها بعد ما رآه من تعسف السلاجقة وظلمهم حتى قال المسترشد (مقالة للعروضى السمرقندى ترجمة عزام والخشاب ص ٣١): «فوضنا أمورنا إلى آل سلجوق فبغوا علينا، فطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون» وقد أعلن هذا الخليفة عداءه للسلطان محمد السلجوقي في سنة ٥٢٠هـ، وأخذ الخليفة يقوى نفسه ويعمل على إقصاء السلاجقة من بغداد، وقطع في سنة ٥٢٩هـ الخطبة لمسعود (٧٨: ص ٨٥)، فتحاربا وكان الفوز لمسعود، وأسر الخليفة.

ثالثا: كان من جراء سقوط الهيبة العباسية أن انزوى الخلفاء في قصورهم يعيشون عيشة ترف ودعة، وبالغوا في الاحتجاب عن الناس، ويذكر المستشرق لسترنج (٧٩: ص ٣٣٢) نقلا عن الرحالة اليهودى توديلا الذى زار بغداد حوالى سنة ٥٥٥هـ، وكان ذلك في عهد المقتفى أو المستنجد، أن الخليفة كان لا يخرج من قصره إلا مرة واحدة أى ليؤم الناس في صلاة عيد الفطر.

رابعا: كان الخلفاء لا يستطيعون الوقوف أمام رغبات السلاجقة أو وزرائهم، فالسلطان البويهى يعزل وزير الخليفة على الرغم منه، لا لشيء إلا تنفيذا لرغبة عميد الدولة البويهى كما انه عزل وزيره أبا شجاع تنفيذا لرغبة ملكشاه (٧٤: ص ٢٥٩ – ٢٦١)، بل إن ملكشاه صمم على طرد هذا الخليفة نفسه من بغداد سنة ٤٨٥هـ لأنه رأى منه ميلا إلى التدخل في أمور الدخل، فبعث إليه من يقول له: «لابدّ أن تترك لى بغداد، وتذهب على أى بلد شئت. فانزعج الخليفة وقال: أمهلنى ولو شهرا، فقال: ولا ساعة واحدة. فأرسل الخليفة إلى وزير السلطان يطلب المهلة إلى عشرة أيام، فاتفق أن مرض السلطان ومات، وعدّ ذلك كرامة للخليفة (٧٦: ص ١٨١)».

خامسا: كان انحلال الدولة السلجوقية مؤذنا بسقوط الخلافة العباسية، لأن ضعف السلاطين، جعل الدولة العباسية مطمعا للأجانب من شرقيين وغربيين فاستطاع الصليبيون أن يسيطروا على الشام، ويوطدوا أقدامهم فيه، واستطاع التركستانيون (الخطا) أن يسيطروا

على الممالك الإسلامية فى بلاد ما وراء النهر، وقد حسب الخلفاء أن زوال سلطة السلاجقة يعيد إليهم سلطانهم. فلما زالوا لم تعد سلطتهم وتسلط عليهم الخوارزميون الذين ورثوا أملاك السلاجقة فى المشرق، ولا شك فى أن الناصر العباسى قد أخطأ خطأ كبيرا حينما استنجد بخوارزمشاتكش، للقضاء على عدوه طغرل بك السلجوقى، ووقع الخلفاء من جديد تحت سلطان الخوارزمية، فعاد الخصام والتنافس من جديد بين الخلفاء والخوارزمية، ولم ينته ذلك التنافس إلا بهلاك الطرفين على يد التتر.

سادسا: كان من نتائج ضعف الخلافة والسلطنة أن قويت جهود الإسماعيلية والباطنية عموما فى فرض سلطانهم والعمل على تقويض أركان الخلافة العباسية. ولقد لعب الخلفاء الفاطميون فى مصر دورا كبيرا فى نشر الإسماعيلية، كما سنرى ذلك، وقد كان هذا أحد الأسباب التى أدت إلى سقوط الدولة.

سابعا: كان من نتائج ضعف الخلافة والسلطنة أن تقوى الصليبيون وسيطروا على بلاد الشام وعلى جزء من بلاد مصر، ووطدوا أقدامهم فى تلك البلاد حتى مكن الله لصلاح الدين الأيوبى أن يقضى عليهم ويقضى على الفاطميين ويعيد للخلافة الإسلامية بعض هيبتها.

ثامنا: كان من نتائج انخذال العرب وبعدهم عن الدولة، وانحلال العصبية العربية، وسيطرة الأعاجم أن سارت فى طريق السقوط. يقول ابن خلدون (فى المقدمة ص ١٨٣): «وهذا ما وقع لبنى العباس. فإن عصبية العرب كانت فسدت بعد دولة المعتصم وابنه الواثق، واستظهارهم بعد ذلك، إنما كان بالموالى من العجم والترك والديلم والسلجوقية وغيرهم. ثم تغلب العجم الأولياء على النواحى وتقلص ظل الدولة، فلم تكن تعدو أعمال بغداد، حتى زحف إليها الديلم وملكوها، ثم صار حكمهم ثم انقرض أمرهم، وزحف أخيرا التتر، فقتلوا الخليفة ومحوا اسم الدولة». وهذه نظرة صادقة فإن تخلى الخلفاء عن عصبيتهم واعتمادهم على هؤلاء الدخلاء، قد أفسد دولتهم ثم قضى عليها. وإذا قارنا هذا الوضع المخزى للعرب يوم سقوط بغداد بالوضع الذى كانوا عليه حينما سار الرسول ﷺ وخلفاؤه من راشدين وأمويين على غزو العالم وفتحه. تبينا أى ذل حاق بهم، وأى سقوط خلقى واجتماعى وصلوا إليه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الرعد ١١. وصدق الله فإن الأرض لله يرثها عباده الصالحون.

تاسعا: كان لجهل المستعصم وسوء إدارته وتقريبه الجهال والفسقة أثر فعّال فى سقوط الدولة وقد وصف لنا صاحب الفخرى أحوال سقوط بغداد، وتحذير ابن العلقمى للمستعصم من الاستمرار فى غيّه فقال: «كان المستعصم رجلا خيرا متدينا، لين الجانب لين العريكة

عفيـف اللســان... إلا إنه كان مسـتضعف الـرأى، ضعيف البطش، قليـل الخبرة بأمور المملكـة، مطموعا فيه، غير مهيب فى النفوس، ولا مطلع على حقائق الأمور، وكان زمانه ينقضى أكثره بسماع الأغانى والتفرج على المساخر، وبعض الأوقات يجلس بخزانة الكتب جلوسـا ليس فيه كبير فائدة، وكان أصحابه مسـتولية عليه وكلهم جهال من أراذل القوم خـلا وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمى فإنه كان من أعيان الناس وعقلاء الرجال، وكان مكتوف اليد مردود القول يترقب العزل صباح مساء... وفى أواخر أيامه، قويت الأراجيف بوصول عسـكر المغول صحبة هولاكو فلم يحرك منه عزما، ولم ينبه منه همة، ولا أحدث عنده هما، وكان كلما سمع عن السـلطان من الاحتياط والاستعداد شىء، ظهر من الخليفة نقيضه من التفريط والإهمال ولم يكن يتصور حقيقة الحال فى ذلك، ولا يعرف هذه الدولة».

فإذا كان هذا وضع الخليفة ورجاله، فالسقوط أمر طبيعى جدا ومفهوم.

عاشـرا: كان لانقسـام الأمة وتجزئ سـكانها واختلاف وجهة نظر كل من سـكانها من عرب وديلم وروم وأحباش وفرس ونصارى ويهود، قد كان كالسـوس ينخر فى جسـم الإمبراطورية حتى انهارت وهوت هذا الهوى الفظيع.

حادى عشـر: كان لسوء إدارة الخلفاء العباسيين المالية والإدارية وضياع العدل وسيطرة الظالمين والأشـرار والأوباش وسـوء معاملة أهل الذمة، وفقدان الوازع الخلقى والدينى سببا قويا فى الانحلال، فالسقوط.

ثانى عشـر: كان لتقوّى الفرق العقائديـة الهدامة، من قرامطة وباطنية، وغلاة من كل قبيـل، وتقاتل هؤلاء الفرقاء بالأقلام والسـيوف، وعمل كل واحد على تهديم خصمه بكل الطرق، ولو بالاستعانة بالأجنبى، تأثير قوى فى ضعضعة الدولة وسقوطها.

ثالث عشر: كان لفساد الأسرة والبيت العربيين، بانتشار الجوارى والسريات والغلمان والخصيان، أثر قوى فى تقويض معنويات الأمة الخلقية، ومقوماتها الاجتماعية، وتقويض هذه المعنويات والمقومات من أجلّ أسباب السقوط.

رابع عشر: كان لاضطراب الأحوال الاقتصادية وفساد أمور الزراعة، وكثرة الضرائب، وكثرة المصادرات، وانتشار الفقر والبؤس يد قوية فى تهديم الدولة والعمل على سقوطها.

❑❑❑

الملحق الثانى

من المرجع (٨) ص ٢٤١ - ص ٢٤٤

(عن عهد الإمارة فى الدولة الأموية بالأندلس ١٣٨هـ - ٣٠٠هـ)

الباب الثانى

الدولة الأموية فى الأندلس فترة الإمارة

فــى الوقت الــذى كان بنو العباس يســتولون فيه على الملك من بنى أمية فى المشــرق كان زمام أمر الأندلس منذ ســنة ١٢٧هـ بيد قوية هى يد يوســف بن عبد الرحمن الفهرى الذى أراد فرض نفوذه على هذه الديار والقضاء على الخوارج والبربر، ولعله كان يرمى إلى الاستقلال بالأندلس بعد أن رأى الدولة الأموية تنهار وتحل محلها الدولة العباسية، وبينا كان يعد العدة لذلك إذ فوجئ بمقدم أحد أفراد البيت الأموى يفلت من أيدى العباســيين ويدخل الأندلس عن طريق إفريقية فى ربيع الآخر سنة ١٣٨هـ (أيلول سنة ٧٥٥م) فرحب به أهل الجنوب والمغرب وكل من فى الأندلس من المضرية واليمنية وأهل الشــام، وخاف يوسف بن عبد الرحمن الفهرى مغبة الأمر فجمع جموعه وزحف نحو جيوش عبد الرحمن (صقــر قريــش) فتلاقى الجمعان وقتل عدد كبير من جنود الفهرى وتم النصر لعبد الرحمن ودخل قرطبة فبايعه الناس بالإمارة فى ذى الحجة ســنة ١٣٨هـ وعمل على توطيد الأمور ولم يكن عمره يومئذ يتجاوز السادسة والعشرين فأحســن السياسة والإدارة وقضى بقية ملكه الذى هو اثنتان وثلاثون ســنة فى كفاح وجهاد حتــى قضى على الثوار والخوارج من أهل البلاد. وعلى الأعداء والكفار من خارجها، وثبت أركان دولة جديدة لبنى أمية.

وكان أول ما اهتم به بعد أن استقرت له الأمور بعض الاستقرار أنه تتبع فلول خصومه فى الداخل فقضى عليهم وفى طليعتهم يوســف الفهرى وفى ســنة ١٦٢هـ (٧٧٧م) ائتمر بعــض خصومه وفى طليعتهم صهر يوســف الفهرى على إعلان ثــورة عارمة وتعاقدوا مع شــارلمان ملك الفرنجة على أن يزحف هو على الأندلس وأن يشــدوا أزره فزحف فى ســنة ٧٧٨م وبلغ حدود سرقسطة ولكن عبد الرحمن اضطره إلى التراجع وقتل عدد كبير من قادته

وفيهم القائد رولان الذى دافع دفاعا قويا خلد ذكره فى القصائد الأدبية المعروفة بقصائد رولان الفرنسى. Chanson Roland، التى تعد من أقدم الشعر الكلاسيكى وأعرقه.

وما أن قضى عبد الرحمن على خصومه حتى انصرف إلى تأسيس دولته الجديدة، على قواعد صحيحة وقوية إلى أن مات فى ربيع الآخر سنة ١٧٢هـ (تشرين الأول سنة ٧٨٧م) بعد أن حكم الأندلس ثلاث وثلاثين سنة فخلفه ولده هشام وسار على غرار أبيه فى تنظيم شؤون الدولة الزاهرة القوية. وكان حازما عاقلا عادلا، قوى الإرادة، متين العقيدة، متحمسا فى دينه، أحسن تصريف الأمور إلى أن توفى سنة ١٨٠هـ (٧٩٦م) فخلفه ولده الحكم بعهد أبيه وكان شديدا طاغية جبارا ميالا إلى اللهو إلا إنه كان مع ذلك يتمتع بكثير من صفات الحكم كالعدالة، والحزم والدهاء، وقد اكتشف فى سنة ١٨٩هـ (٨٠٥م) مؤامرة واسعة دبرها رجال الدين لخلعه فقد ضاقوا بلهوه ذرعا وفى طليعتهم الأئمة يحيى بن يحيى الليثى، وعيسى بن دينار فقيه الأندلس، وطالوت الإمام المالكى، وقد أعانهم فى هذه المؤامرة نفر من الأعيان والوجوه كمالك بن يزيد التجيبى، وموسى بن سالم الخولانى، وعيسى بن عبد البر، وأخيه أبى كعب، ويحيى بن مضر القيسى، وعلى رأسهم بعض بنى أمية وهم عمه مسلمة المشهور بكليب، وأمية بن عبد الرحمن. ومحمد بن القاسم المروانى، ولكن الحكم اكتشف مؤامرتهم ففر قسم منهم، وتمكن من قسم ففتك بهم وصلبهم. ولكن العامة غضبت لهذا التصرف الجائر وثارت فى (الربض) بزعامة أحدهم واسمه دبيل فتمكن الحكم منهم وسحقهم دون ما رحمة وهدأت الثورة إلى حين ثم ثاروا ثورة عنيفة أذهبت عددا من الضحايا وهى التى تعرف بثورة الحفرة فى ١٩١هـ (٨٠٧م)؛ ثم التفت الحكم إلى تهيئة جيش كبير لغزو الفرنجة فى الشمال فأرسل عليهم عدة حملات كان آخرها حملة سنة ٢٠٠هـ (٨١٥م) فقد سير الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث إلى جيليقية وكان الجلالقة وأخلافهم من الباسك (البشكنس) يفسدون الحرث والنسل فتوغل عبد الكريم فى ديارهم وهزم جيشهم (اقرأ نفح الطيب ١، ١٥٩ والبيان المغرب ٢، ٧٧).

وفى أواخر عهد الحكم قامت ثورة داخلية عنيفة فى ربض قرطبة كادت أن تطيح بعرشه لطغيانه وشدته وكان من ورائها الفقهاء، ونفر من الأعيان وعدد كبير من المولدين وهم سكان البلاد الأصليين الذين أسلموا ولكنه تمكن من زعمائهم وصلبهم فى سنة ٢٠٢هـ (٨١٧م) وقضى على روح الثورة واجتث جذورها بكثرة من فتك بهم، فهدأت له الأمور

إلى أن أدركــه الأجل فى ســنة ٢٠٦هـ (٨٢٢م)، فخلفه ابنه عبــد الرحمن الثانى وله من العمر ٣١سنة، فقام بالأمر أحسن قيام، وبعث عدة حملات عسكرية إلى جيليقية وبسكونية وغاليسيا، وقضى على عدة ثورات داخلية قام بها مناوئوه من المولدين والثوار، وجهز عدة أساطيل لغزو (الباليار) فأخضع أهله لحكمه وغزا ساحل إيطاليا وفرنسا، وقضى على كثير من الفتن الداخلية وشيد كثيرا من المعاهد والمدارس، وأحيا العلوم والآداب وازدهرت البلاد فى عهده إلى أن هلك فى ســنة ٢٣٨هـ (٨٥٢ م) وله واحد وســتون عاما فخلفه ابنه محمد ٢٣٨هــ – ٢٧٣هــ (٨٥٢ – ٨٨٦م) فلم يكن فى عهده شــىء بارز ثم لما هلك محمد خلفه ولــداه المنــذر ٢٧٣–٢٧٥هـ (٨٨٦ – ٨٨٨م) ثم عبــد الله ٢٧٥ – ٢٩٩هـ (٨٨٨ – ٩١٢م) ولم يكن فى عهدهما ما يستحق الذكر كما أنهما لم يكونا متصفين بشىء من الصفات النادرة التى كان البيت الأموى يتصف بها من إدارة وحزم وسياسة ودهاء وكياسة. وقد ظهرت فى عهدهما بعض الفتن الداخلية الكبيرة، وتآمر عبد الرحمن الثالث على جده الخليفة عبد الله مع الحجام فســمّه بمبضع الفصاد (راجع تفصيل أخبــار هذه الفترة فى تاريخ ابن عذارى ٢، ١٦٠ وتاريــخ ابن خلدون ٤، ١٣٢. وأخبــار مجموعة ص١٥٠)، فقتله وتولى الخلافة بعــده. وقامــت فى عهد محمد وعبد الله عدة ثورات داخليــة، وانفصلت بعض المقاطعات عن الدولة معلنة اســتقلالها كمقاطعة ألريه الجبليــة وعاصمتها مدينة أرجذونة حتى عقد صاحبها معاهدة استقلال مع الخليفة محمد لقاء جعل من المال واستقلت مقاطعات أرغونة وسرقســطة وتطيله وتعهد أصحابها بنو القســى وهم من القوط المسلمين بدفع مبلغ من المال لقاء استقلالهم، وتعاهدوا مع جيرانهم من الفرنجة فى غاليسيا. وانفصلت مقاطعة طليطلة بقيــادة أصحابها بنــى ذى النون البربر، كما انفصلت مقاطعة أشــبيلية تحت زعامة بنى الحجاج الذين ينتسبون إلى سارة حفيدة غيطشة آخر ملوك القوط، واستقلت مقاطعتا ماردة وباجة تحت إمرة عبد الرحمن بن مروان الجليقى كما اســتقلت قرطبة وما حولها بزعامة الأمير ابن حفصون وهو أحد نبلاء القوط الذين تظاهروا بالإسلام وتغلبوا على قسم كبير من البلاد.

وقد أحس المســلمون فى أواخر عهد الأمير عبد الله أن البلاد قد تجزأت، وأنها آخذة فى الاضمحلال، وتحتاج إلى أمير كبير ينظم أمورها ويوحدها فكان عبد الرحمن الثالث هو ذلك الرجل المنشود.

الملحق الثالث

من المرجع (١٠) ص ٢٠٢ - ص ٢٠٣
(فى خلفاء صلاح الدين الأيوبى فى الفترة ٥٨٩هـ - ٦٤٨هـ)

خلفاء صلاح الدين

يمكـن القول إن بذور انهيـار دولة صلاح الدين قد بدأت مع وفاته فإن ملكه الفسـيح سـرعان ما تقطعت أوصاله، إذ قسّـم المملكة بين أولاده وإخوته وغيرهم من فروع الأسرة، فجعل السـلطنة العامة لابنه الأفضل أكبر أولاده وجعل له دمشـق وجنوبى سوريا، وجعل مصر لابنه العزيز وحلب لابنه الظاهر، وكانت العراق وديار بكر لأخيه العادل، وتولى أفراد من أسـرته حماه وحمص وبعلبك واليمن، ولكن سـرعان ما دب الشقاق بين هؤلاء بعضهم البعض مما أضعف الدولة وقلل نشاطها.

ولقد كانت الدولة مقسـمة على هذا النحو فى عهد صلاح الدين، بمعنى أنه ولى إخوته وأفراد أسرته أجل الولايات وأعظم الأعمال كما قلنا من قبل، ولكن كلا من هؤلاء كان تابعا له يعلن تبعيته، ولا يقوى أن يبدى أى اتجاه اسـتقلالى، ولعل صلاح الدين كان يعتقد أن ولاء هؤلاء سـيظل للسلطان الأفضل، وسيبقون جميعا حوله خاضعين له مكونين معه كتلة إسـلامية قوية، ولكن هذا الأمل لم يتحقق، وحل محل الوئام خصام، إذ لم يكن الأفضل يشبه صلاح الدين فى مواهبه العسكرية والإدارية أو يقرب منه.

وعلى العموم فقد رجحت كفة الملك العادل على منافسيه، فضم تحت سلطانه أكثر بقاع مملكة صلاح الدين، فقد ضم دمشق سنة ٥٩٢هـ من الملك الأفضل، كما استطاع أن يستولى على مصر سنة ٥٩٦هـ من المنصور بن العزيز، ولم تبق من بلاد الشام إلا حلب التى ظلت خاضعة لذرية صلاح الدين حتى سـنة ٦٥٨هـ، وحوالى سـنة ٥٩٧هـ اسـتولى على شمال العراق وعين من أولاده مَنْ حكمها باسمه، ومات العادل سنة ٦١٥هـ، وتولى أبناؤه السلطان فى مملكته فى فروع متعددة على نحو ما تم بعد موت صلاح الدين، غير أن السـلطان ظل فى أبناء العادل بهذه البقاع حتى سـقوط الدولـة الأيوبية ولم يتحول عنهم كما تحول عن أبناء صلاح الدين مع ملاحظة أن الناصر يوسف من سلالة صلاح الدين وهو ملك حلب ضَم

إليه دمشق سنة ٦٤٨هـ عند سقوط الأيوبيين وقيام دولة المماليك بمصر وقد استردها المماليك فيما بعد أما حماه وحمص واليمن فقد كانت تابعة لأمراء من الأسرة الأيوبية ينحدرون من أبناء عمومة صلاح الدين.

وبسقوط الأفضل سنة ٥٩٢هـ عادت مصر لتكون المركز الرئيسي لسلطان الأيوبيين بزعامة أولاد الملك العادل الذين استطاع أكثرهم أن يمدوا نفوذهم إلى سوريا، وقد عاشت سلطة الأيوبيين بمصر حتى سنة ٦٤٨هـ ثم أفسحت الطريق للمماليك الذين كان اشتراهم الملك الصالح نجم الدين أيوب وجعلهم خاصته وبطانته، وقضى على غالبية أمرائه وعين المماليك محلهم، وكان هؤلاء يظهرون غاية الإخلاص لسيدهم، ولكنهم بعد موته لم يستطيعوا أن يظلوا على ولائهم لابنه توران شاه، واتخذوا جنب شجرة الدر زوجة أبيه والتى تنحدر من المعين الذى انحدروا منه وتآمروا معها على توران شاه وقتلوه، وبدأ بذلك سلطانهم سنة ٦٤٨هـ. ولما استبد المماليك بمصر تبعت دمشق حلب مدة عشر سنوات حتى اكتسحها المغول سنة ٦٥٨هـ فى زحفهم المدمر، وبعد معركة عين جالوت عاد سلطان المماليك إلى دمشق وحلب، ومن سلاطين «حماة» الأيوبيين ينبغى أن نذكر المؤرخ الكبير «أبو الفدا» الذى حكم من سنة ٧١٠هـ إلى سنة ٧٣٣هـ، أما سلطان الأيوبيين بالحجاز فقد انتقل سنة ٦٢٥هـ إلى الدولة الرسولية باليمن.

وكانت الحروب الصليبية أهم الأحداث التى شغلت العهد الأيوبى، ولذلك نكتفى الآن بهذا القدر من الكلام عن صلاح الدين وخلفائه، وسيمتد لهم الحديث مرة أخرى عند الكلام عن الحروب الصليبية.

□□□

الملحق الرابع

من المرجع (١٩) – الجزء السابع ص ٥٦ - ص ٦٠
(ما بين عهدى الأيوبيين والمماليك ٦٠٠هـ - ٦٥٦هـ)

الفصل السادس

الشام منذ القرن السابع للهجرة

من العسير جدا أن يفرق فى هذه الفترة بين تاريخ الشام وتاريخ مصر، فإن القطرين كانا فى الحقيقة يكونان وحدة سياسية، كما سنفصله فى المباحث المتعلقة بمصر، ولكن هناك حوادث ذات بال وذات طابع مخصوص جرت فى الشام فلا بد لنا من الإشارة إليها والوقوف عندها طويلا وبخاصة فيما يتعلق بحملات الصليبيين.

أطل القرن السابع للهجرة وبعض بلاد الشام خاضعة للسلطان الأيوبى وبعضها الآخر خاضع للنفوذ الصليبى وبخاصة السواحل الشامية، وكانت الحرب تكون دوما سجالا بين الملك العادل وبين الصليبيين، ومن أعظم المعارك التى جرت فى سنة (٦٠٣هـ) هجوم الملك العادل على عكا وقبول حاكمها وأهلها بمصالحته وإطلاق من فى أيديهم من أسرى المسلمين. وفى سنة (٦٠٤هـ) كثرت غارات الصليبيين من طرابلس وحصن الأكراد على المدن الداخلية الشامية، وبخاصة مدينة حمص وما إليها، وقد حصل فى سنة (٦٠٧هـ) حادث اضطربت له بلاد الشام جميعا، وخلاصته أن نساء دمشق قصصن شعورهن وضفرن منها حبالا تستعمل فى حبال المنجنيق وعدد الجهاد ضد الصليبيين، وكن قد بعثن بهذه الحبال إلى علامة الشام ومصلحها وواعظها فى ذلك الحين سبط ابن الجوزى[1]، فلما رآها هاجت دموعه وبكى، ولما صعد على المنبر يوم الجمعة ليخطب ويعظ الناس فى جامع بنى أمية أمر بإحضار تلك الشعور المجزوزة فحملت على الأعناق، وكانت ثلاثمائة شكال وهو الحبل الغليظ الذى تشد به قوائم الدابة فلما رآها الناس تصايحوا وضجوا ضجة عظيمة

---

(١) هو العلامة الأشهر، والمصلح الكبير سبط ابن الجوزى (١١٨٦-١٢٥٧م) ولد فى بغداد وتوفى فى دمشق وله مع الصليبيين أخبار، وفى حروبهم بلاء عظيم وكان على جانب كبير من الخلق الرفيع، والسخاء، والدهاء، والجهاد، وله آثار علمية أجلها مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان فى ٤٠مجلدا طبع منها المجلد الثامن فى نيويورك.

وتقاسموا أن يقاتلوا الصليبيين صفا واحدا أو يهلكوا عن آخرهم، ثم أخذت الجيوش تستعد للقتــال بقيادة الأمراء الأيوبيين وتتعاهد على الجهاد وقطــع دابر الصليبيين الذين يعيثون فى الديار الإســلامية فسادا وبخاصة فى فلســطين المقدسة وسارت جموعهم من دمشق إلى نابلس حيث كان يقيم الملك المعظم، والتقى الجمعان، وكتب الله النصر للمســلمين فخربوا ديار الفرنجة وأســروا جماعات من ملوكهم وأمرائهم وقادتهم حتى اضطروهم إلى الاحتماء بحصون عكا، والكتابة إلى الملك العادل يرجونه أن يعقد معهم كتاب صلح ويهادنهم ففعل وأمنهم إلى حين، وأخذ الصليبيون فى الخفاء يعدون أنفســهم للقاء المســلمين فى دمشــق ويهيئون للقيام بحملة شديدة إلى أن كانت سنة (٦١٤هـ) فهاجم الصليبيون سورية بحملة قاسية، وهى الحملة الخامسة من حملاتهم، وتم لهم النصر وتوغلوا فى البلاد إفسادا ونهبا وقتلا حتى وصلوا بلاد بيسان ونابلس وكادوا يستولون على دمشق، ومما قوى عزائمهم فى ذلك وفاة الملك العادل فى سنة (٦١٥هـ) وبوفاته تضعضعت أركان البيت الأيوبى فقد كان رحمه الله حازما متيقظا، غزير الفهم، حســن السياسة، وكاد الصليبيون أن يسيطروا على سائر مدن الشام لولا أن اتفق أولاد الملك العادل وتراصوا «فلا جرم زاد ملكهم ورأوا من نفاذ الأمــر والحكــم ما لم يراه أبوهم، ولعمرى أنهم نعم الملوك وفيهم الحلم والجهاد والذب عن الإسلام...» (٦٥: حوادث سنة ٦١٥هـ). وفى سنة (٦٢٦هـ - ١٢٢٨م) حمل الصليبيون حملتهم السادســة على الشــام بزعامة الأنيرور فريدريك الثانى ملك صقلية، وكان سياسيا داهية، اســتطاع بمكره أن يقنع الملك الكامل الأيوبى بالتفاوض معه. وتســليم بيت المقدس وبيت لحم والناصرة لمدة عشــر ســنوات على أن لا يتعرض هو وسائر ملوك الصليبيين لقبة الصخرة والمســجد الأقصى بأى أذى فقبل الملك الكامل منه ذلك واضطربت بلاد الإســلام لهذه النكبة العظمى، وكانت هذه القصة سببا فى إيغار صدور أهل دمشق على الملك الكامل ومــن معــه، وخصوصا حين ازدادت قــوة الصليبيين وحاربوا دمشــق وحاصروها، وكادوا يدخلوها لولا وقفة أهل دمشق الجبارة، وردهم عنها أشنع ردّ، ثم زاد الأمر اضطرابا وقوع الوحشــة بين الملك الكامل وبين إخوته وســائر أمراء البيت الأيوبى، ولقيت البلاد من هذه الوحشية عنتا كبيرا، وبلاء عظيما إلى أن هلك الكامل فى سنة (٦٣٥).

وقد ازدادت أمور الفوضى بين أمراء البيت الأيوبى فانقســموا على أنفســهم، وتحاربوا وتجالــدوا، وقســموا البلاد بينهم، وخربــت الدور والقصور، والمعاهد والمدارس والمســاجد

بسـبب ذلك فى أكثر مدن الشـام العزيز، وانتهز الملوك والقادة الصليبيون هذا الانقسـام فأغاروا على المدن وشـتتوا أهلها، وخصوصا حين التجأ بعض الملوك والأمراء الأيوبيين إلى الصليبيين يستعينون بهم على إخوتهم أو أبناء عمومتهم. وتفصيل ذلك أن الملك الجواد بن مورود بن الملك العادل الأيوبى ذهب إلى مدينة عكا لاجئا إلى صاحبها الصليبى وحافزا إياه على قتال ابن عمه الملك الصالح أيوب صاحب مصر، وقتال الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشـق وقـد وعد الملك الجواد صاحب عكا بأن يقره على جميـع ما فى يده من البلاد إن هو نصره على صاحبى مصر ودمشق، ولكن الملك الصالح صاحب دمشق كان أكثر دهاء من الملك الجواد فإنه بعث رسـولا من قبله إلى صاحب عكا الصليبى ومعه هدايا وتحف ثمينة وكتاب يطلب فيه تسـليم الملك الجواد فما كان من الصليبى إلا أن أخذ الهدايا وسـلم الملك الجواد إلى رسل الملك الصالح إسماعيل فلما وصل إلى دمشق اعتقله ثم خنقه فى سجنه فى سـنة (٦٣٨هـ). ولما تخلص الملك الصالح إسماعيل من الملك الجواد، أراد التخلص من ابن أخيـه الملـك الصالح أيوب صاحب مصر فاتفق هو وصاحب عكا الصليبى على أن يسـلمه صفد والشقيف إذا هو أعانه على قتال الملك الصالح أيوب صاحب مصر، واضطربت دمشق لهـذا العمل الإجرامـى الذى قام به الملك الصالح إسماعيل، كما اضطربت له سـائر المدن الشامية والمصرية وقام القاضيان الشافعى والمالكى فى دمشق – وهذان أكبر رجال الدين فى البلـد منصبا – يلعنان من أقدم على هذا الأمر. ويعلنان سـخطهما على هذا العمل الحاط من شـرف العروبة والإسـلام، فما كان من الملك الصالح إسماعيل إلا أن عزلهما وسجنهما فى قلعة دمشـق، فسكنت المدينة على مضض، وتم الاتفاق بين إسماعيل والصليبيين على تنفيذ ما وعدهم به، وسـلم إليهم بيت المقدس وعسـقلان وطبرية، ثم التقت جيوش الملك الصالح أيوب بجيوش الملك الصالح إسماعيل ومن معه من الصليبيين ولكن الله كتب للجيش المصـرى نصـره وتأييده وانخذل الملك الصالح إسماعيل ومن معه من الفرنجة حتى قال ابن أبى أسـامة «وكسرت الفرنج ومن انضم إليهم من منافقى المسلمين وقتل منهم مقتلة عظيمة واسـتولى الملك الصالح أيوب صاحب مصر على غزة والسـواحل والقدس، ثم أرسـل باقى عسكر مصر مع معين الدين بن الشيخ واجتمع إليه من بالشام من عسكر مصر والخوارزمية وسـاروا إلى دمشـق وحاصروها وبها صاحبها الملك الصالح إسماعيل وإبراهيم بن شـيركوه صاحـب حمـص، ولما ضاق صاحب دمشـق ذرعـا بحصار صاحب مصر له سـير الصالح

إسماعيل وزيره أمين الدولة على العراق مستشفعا بالخليفة ليصلح بينه وبين ابن أخيه فلم يجب الخليفة إلى ذلك وتسلم عسكر الملك الصالح أيوب دمشق من الصالح إسماعيل على أن يستقر بيد الصالح إسماعيل بعلبك وبصرى والسواد، وتستقر حمص وما هو مضاف إليها بيد صاحبها، ثم إن الخوارزمية خرجوا عن طاعة الصالح أيوب، فإنهم كانوا يعتقدون أنهم إذا كسروا الصالح إسماعيل وفتحوا دمشق يحصل لهم من البلاد والإقطاعات ما يرضى خواطرهم. فلما لم يحصل لهم ذلك خرجوا عن طاعة الملك أيوب وصاروا مع الملك الصالح إسماعيل وانضم إليهم الناصر داود صاحب الكرك وساروا إلى دمشق وحاصروها فقاسى أهلها شدة عظيمة» (راجع كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين)، حوادث سنة (٦٤٢هـ)، والحق أن دمشق لقيت من هذه الفئة عناء كبيرا، كما لقيت من هذا الحصار بلاء عظيما، وقد احترقت محلات العقيبة وقصر حجاج والشاغور وحكر السماق، وهي من أعظم محلات دمشق: وقد دام الحصار نصف سنة حتى هلك فيه الناس جوعا، وأكلوا الموتى والأطفال، ولم ينكشف البلاء عنهم ولم ينجوا من بلاء الخوارزمية والملك الصالح إسماعيل إلا بعد أن استنجدوا بالحلبيين فقدموا إليهم وأعانوهم على طرد الخوارزمية عن دمشق وشتتوا شملهم في سنة (٦٤٤هـ).

وفي سنة (٦٤٧هـ) مات الملك الصالح أيوب صاحب بلاد مصر وأكثر بلاد الشام وكان قد استكثر في حياته من المماليك الترك والصقالبة لحراسته وتقوية نفوذه. فلما مات قوي أمرهم واشتد سلطانهم حتى تملكوا البلاد من بعده على ما سنفصله. والحق أن هؤلاء المماليك قد استغلوا سلطانهم أيام الملك الصالح أيوب، ولما هلك ولم يكن له ولد تولت الأمر بعده زوجته شجرة الدر، وأعانها على ذلك نفر من المماليك وكتبوا بذلك إلى أهل الشام فأبى هؤلاء أن يخضعوا لامرأة وولوا عليهم الملك الناصر يوسف بن أيوب صاحب، وتمت له السيطرة على سورية من حلب إلى دمشق إلى بعلبك فعجلون.

ولما اتفق المماليك في مصر على خلع شجرة الدر وتولية أحدهم وهو المملوك أيبك الجاشنكير، كتبوا بذلك إلى أهل الشام فرفض ذلك إلا أن يولوا أحد الأمراء الأيوبيين، ثم جمعوا جموعهم وتوجهوا إلى مصر لقتال هؤلاء المماليك والتقى الجيشان الشامي والمصري عند مدينة العباسّة، وبعد قتال مرير بينهما تم الاتفاق على عقد صلح بين الملك الناصر يوسف بن أيوب صاحب دمشق وبين المماليك البحرية على أن يكون للمماليك ما وراء حدود

نهر الأردن وللناصر ما بعد ذلك، ولكن هذا الصلح لم يدم طويلا فإن بعض المماليك انشقوا عن إخوانهم فى مصر وجاءوا إلى الملك الناصر فى دمشــق يطمعونه فى الســيطرة على مصر فســار معهم بجيوشــه حتى إذا وصل إلى غور الأردن وقعت فتنة بينه وبين المماليك اضطر الناصر بعدها أن يرجع إلى دمشــق، ولم يكد يســتقر فيها حتى جاءته الأخبار بأن جيوش هولاكو تزحف نحو الشام.

❑❑❑

الملحق الخامس

من المرجع (١٩) – الجزء السابع ص١٨٩-ص١٩٢

(عن الحالة الإدارية فى مصر والشام بعد احتلالها من العثمانيين مباشرة عام ١٥١٦م وما بعدها)

أما أرض مصر فقد كانت مقسمة إلى أربعة وعشرين قيراطا، يختص السلطان منها بأربعة قراريط والمماليك والأجناد يختصون بعشرة، والباقى وقدره عشرة موزع بين الأهلين جميعا؛ وقد ساءت حالة الأجناد قبيل تولى السلطان لاجين، فإن كبار المماليك كانوا يستولون على الأراضى ولا يعطون الأجناد إلا الشيء القليل من غلاها أو ثمن غلالها.

وأما الضرائب فكانت تختلف باختلاف السلاطين فإن كان السلطان ظالما أكثر منها وأرهق المكلفين من الأهلين، وإن كان رحيما خفف من وطأتها. ومن المماليك السلاطين الذين كانوا يرأفون بالأهلين الملك الناصر فقد قضى على إقطاعات المماليك التى كانت تنقص دخل بيت المال. ومسح الأراضى المصرية، وأعاد النظر فى مصروفات الدواوين (٨٠: ص ٨٨)، وعمل على الإقلال من الضرائب المفروضة على الأسواق وصغار الباعة، وفى عهد برسباى صدر قرار أن التجارة الخارجية فى البلاد كلها يجب أن تأتى إلى ميناء المملكة السكندرية ثم إلى القاهرة حيث تفرض عليها الضرائب. ثم تنقل منها إلى سائر الممالك. قال المؤرخ المستر موير فى الفصل الذى خصصه للسلطان برسباى: إن الحكومة قد احتكرت التوابل الشرقية وخاصة الفلفل فحدا ذلك دول أوربا إلى الشكوى والانتقام؛ وقد أثقل كاهل الناس عبء آخر وبخاصة فى زمن الوباء وهو التضييق على صناعة السكر بل على زراعة قصب السكر، والحقيقة إن الحكومة دخلت فى كل فرع من فروع التجارة وكانت تراقب الأسواق، حتى أسواق اللحم، والقمح، مراقبة أدت إلى أن هجرها الناس أحيانا هجرا نجم عنه الهياج والثورة (٨٠: ص ١٣٦ – ١٣٧).

هذا ما كان عليه الأمر فى أيام المماليك. فلما استولى العثمانيون تبدلت الأمور تبدلا كليا وفقدت مصر استقلالها، وفقد الشام استقلاله وأضحيا خاضعين للباب العالى فى الأستانة يرسل إليهما الولاة: ويتحكمون فيهما على الشكل الذى رأينا فى القسم السياسى.

ومن أظهر معالم التغير الذى طرأ بعد الاحتلال العثمانى انقضاء عهد الخلافة العباسية التـــى أحياهـــا المماليك فى القاهرة كما أســـلفنا بيانه، فقد قضـــى العثمانيون الأتراك على الخلافة العباســـية فى مصر والشـــام، وتغلبوا عليها، فإن السلطان سليم خلع آخر الخلفاء العباســـيين فى القاهرة ونادى بنفســـه سلطانا وخليفة للمســـلمين على الرغم من كونه غير عربى، والخلافة إنما هى فى قريش، ووجد من رجال الدين من زور له نسبا قرشيا عربيا، وقد قسم السلطان سليم السلطة فى مصر إلى ثلاثة أقسام:

أولاها: سلطة باشا وهو الوالى المرسل من قبله.

وثانيتها: ســـلطة الوجاقات (أى الفرق) العســـكرية، وهى مؤلفة من الأجناد والعساكر العثمانية التى تقيم فى مصر وسائر القطر، وهى ستة وجاقات وهى:

١ – وجاق المتفرقة للمراسم وهم نخبة من حرس السلطان.

٢ – وجاق الجاويشية لجمع الخراج والضرائب.

٣ – وجاق الهجانة.

٤ – وجاق التفكجية وهم أرباب البنادق المحاربون.

٥ – وجاق الانكشارية وهم عامة الأجناد الأخلاط.

٦ – وجاق العرب وهم الأجناد العرب من سكان البلاد. وعلى كل وجاق (آغة) و(كيخية) و(دفـــتردار) و(خزندار) و(رزنامجى)، ومن رؤســـاء الوجاقات يتألف مجلس شـــورى الباشا.

وثالثتها: سلطة المماليك الذين استبقاهم السلطان سليم من بقايا المماليك السابقين حفظا للتوازن بين الباشـــا والوجاقات، وقد قســـم الســـلطان ســـليم الديار المصرية إلى اثنتى عشر (ســـنجقلية) يحكم كل واحدة منها ســـنجق من المماليك يسميه الديوان، أى مجلس شورى الباشا التركى.

وقد نتج عن هذا التقســـيم الإدارى الجديد أن اضطربت البلاد وقاســـت ويلات، ولكن الباب العالى أصر على تنفيذه فنفذه وبذلك اســـتطاع الأتراك الســـيطرة على البلاد وحكمها حكما مباشرا.

أمـــا أربـــاب الإقطاعات القديمـــة فقد ظلوا فى الشـــام ومصر بعد الفتـــح العثمانى على الحالة التى كانوا عليها من قبل فى أيام المماليك، وقد ظهرت فى أيام الأتراك العثمانيين

فى كلا القطرين أسر حكمت بعض المقاطعات حكما استقلاليا مثل أسرة (الشهابى) و(المعنى) و(الحرفوش) وغيرهم، وكان زعماء هذه الأسر يجمعون الأموال من الأهلين ويقدمون بعضها إلى الوالى التركى، وبعضها إلى الباب العالى، ويحتفظون لأنفسهم بحصة الأسد. وكثيرا ما كان يغضب الوالى التركى على أحد أصحاب الإقطاعات فيبعث إلى فرقة من الانكشارية أو الأجناد (القبوقول) فيحرقون داره، ويسبون أهله، ويقطعون الشجر فى بلاده حتى يخضع للوالى.

ومما هو جدير بالذكر فى العهد العثمانى أن كثيرا من الولاة والحكام كانوا يشترون مناصبهم بالمال وربما نالوها بالمزايدة، وينقل الأستاذ كرد على عن تقرير لأحد القناصل البندقيين إن منصب الوالى كان فى الأستانة يكلف من (٨٠) إلى (١٠٠) ألف دوكا، ومنصب الدفتردار كان يباع بـ (٤٠) أو (٥٠) ألف دوكا، ومنصب القاضى كان يساوى أقل من هذه القيم، وكلهم إذا جاءوا البلد الذى عينوا له كانوا يسلبون النعمة ويعرقون اللحم، ويكسرون العظم (٨١: ٢ / ٢٨٣)، وكان من الطبيعى أن هذا الوالى أو الدفتردار أو القاضى الذى وصل إلى منصبه بالمزايدة أو الشراء، يعمل على استرداد مبلغه من الأهلين، ويهلك حرثهم ونسلهم، ويسلب قوتهم، وقد ساعد هؤلاء الموظفين المرتشين بعدهم عن دار السلطنة – استانبول – من جهة، وتعامى السلطان وأهل الحل والعقد فى العاصمة عن سماع أصوات المتظلمين من جهة ثانية. قال المرحوم كرد على نقلا عن المؤرخ التركى جودت: إن الدولة العلية لما انتقلت من دور البداوة إلى الحضارة لم يتخذ رجالها الأسباب اللازمة لهذا الانتقال، وحصروا أوقاتهم فى حظوظ أنفسهم وشهواتهم، يقيمون فى العاصمة القصور الفخمة، ويفرشونها بأنواع الأثاث والرياش مما لا يتناسب مع رواتبهم فاضطروا إلى الارتشاء وبيع المناصب بالمال وتلزيم البلاد وإقطاعها بالأثمان الفاحشة، فضاق ذرع الأهلين، واضطر كثير من أهل الذمة أن يهجروا الأرض العثمانية إلى البلاد الخارجية، وترك غيرهم القرى وجاء إلى الأستانة فرارا من الظلم، فلم يبق مكان فى الأستانة، وتلاصقت الدور وتضايقت أنفاس الناس وكثر الحريق والأوبئة (٨١: ٢ / ٢٣٥، ٢٣٦) . وإذا كانت هذه حال الدولة وهى فى أوج عزها، فإنها حين ضعفت فى القرن الثانى عشر أضحت بحالة يرثى لها من الانحدار الخلقى والإدارى، على الرغم من اتساع رقعة بلادها من (فيينا) إلى أقصى بلاد العرب، ومن إيران إلى المغرب الأقصى، وماذا تعنى سعة الرقعة، والبلاد يعمها الجهل،

وينتشر فيها المرض، وتفتك بها الثورات الداخلية، والولاة تسلب الحكام، والحكام تسلب الأهالى، والجند يعيثون فى الأرض فسادا على اختلاف طبقاتهم وأنواع وجاقاتهم من قبوقولية، وانكشارية، ولاوند، وسكبان، وغير ذلك من الفرق والطبقات التى كانت كل واحدة منها حربا على أختها من جهة وحربا على الأهلين من جهة ثانية.

أما جباية الأموال فكانت على غير قاعدة، ولا فى سبيل الفائدة العامة، وكان هم الولاة والقضاة وسائر الحكام أن يجمعوا الضرائب والفرائض من الأهلين على اختلاف طبقاتهم بالقوة، وإذا ما رفع أحدهم صوته أو اشتكى خنقوه أو قتلوه أو نفوه أو صادروه، والويل كل الويل لمن يجرؤ على العصيان، ومخالفة أمر أولى الطاعة والسلطان، فإنهم حاكمون بأمرهم وبأمر السلطان ظل الله على الأرض، وصاحب الكلمة المطلقة، الذى لا يُسأل عما يفعل، وله وحده الطول والحول والقوة.

ولقد قاست بلاد الشام ومصر ويلات شدادا لسوء إدارة ولاتهما وفساد الحكم فيهما.

□□□

الملحق السادس

من المرجع (١٩) ص ١٣٤ - ١٤٢

(عــن أحوال الحجــاز فى القرن الثانى عشــر الهجرى الثامن عشــر الميلادى ١٠٨٣هـ-١٢٠٢هـ)

وفى ســنة (١٠٨٣هـ) اجتمع الأشــراف ومن بينهم الشــريف أحمد بن محمد الحارث وجاء حســن باشــا معلنا ولاية الشريف بركات بن محمد ففرح الناس بذلك لما كان يتحلى به وهنأوه بالشــرافة، واطمئن الوضع فى أيامه وكان موضع ثقة الباب العالى، قال صاحب خلاصــة الأثر: وحظى عند الســلطنة وكان مقبول الكلمة عندهــم ....
وكان كثير الإحسان للأشراف كثير التعطف بهم، وتقووا فى زمنه وقويت شوكتهم وكثرت أموالهم وبسبب ذلك بقيت كبار الأشراف وصغارهم تحت طوعه... وحمدت طريقته وأمنت فى زمنه السبل، وربحت التجار وانتظم الأمر خصوصا للحجاج.

وقد ظل على سيرته الحميدة هذه إلى أن توفى سنة (١٠٩٤هـ) فتولى بعده ابنه الشريف سعيد وألبسه القاضى خلعة الاستمرار بموجب أمر السلطان الذى بيده والذى يتضمن كونه ولى عهد أبيه ولم ينازعه أحد من الأشراف، ثم وصلته خلعة الاستمرار من صاحب مصر، ووردت بعدهــا من الســلطان العثمانــى. ولم تمضى فترة حتى جاءت إرادة ســلطانية من اســتانبول تقضى بجعل الولاية أرباعا، ربع للشريف السعيد والأرباع الثلاثة الباقية لسائر الأشراف فوقعت الاختلافات بينهم وفسدت أمور البلاد، وصار عبيد كل شريف وجماعته يجمعون الأموال. ولاقى الناس منهم بلاء عظيما واســتمرت هذه الحالة إلى أن حان وقت الحج الشــريف ســعيد، وحاكم مكة القائد أحمد بن جوهر، وأمير الحاج الشــامى، وأمير الحــاج المصــرى. وتداولوا هذا الأمر فلم يصلوا إلى قرار تســتتب به الأوضاع وزاد الفســاد واضطرب حبل الأمن وانقطعت الســبل، ولم يعد يأمن الناس على أنفســهم من السير بعد الغروب، وكثرت القتلى والتعديات، وازدادت إضرابات الأشــراف ومماليكهم وجماعاتهم، وفســد الأمر حتى اضطر الشــريف سعيد أن يرسل إلى الباب العالى ترجمانه ويذكر فساد الحالة فى مكة وأنها

خربت فمن الواجب إرسال جند نظاميين يضبطون أحوالها، فلما بلغ الترجمان إلى الباب العالى شاور السلطان أولى الأمر وكان فى الأستانة يومئذ الشريف أحمد بن زيد فتم الاتفاق على إرساله إلى مكة وذهب فى مطلع عام (١٠٩٥هـ) فاستأنس الناس به وعادت المياه إلى مجاريها شيئا فشيئا لما كان يتمتع به من الحزم والعقل وظل فى الولاية إلى أن مات فى سنة (١٠٩٩هـ) فاجتمع أركان البلاد واتفقوا على إقامة ابن أخيه الشريف سعيد بن سعد فعارضه بذلك الشريف أحمد بن غالب ووقعت فتنة بين الاثنين انتهت بانكسار الشريف أحمد وجماعته، واضطر إلى أن يفر إلى اليمن، أما الشريف محسن فإنه دخل مكة فى فجر عام (١١٠١هـ) وأخذت تأتيه رسائل من الشريف أحمد كلها تهديد وإنذار، كما أتت رسائل إلى أعيان الحجاز ومنها تهديد وإنذار بغارة قوية أثناء الموسم وذاع خبر هذه الرسائل بين الناس فاضطربوا لها، وترقبوا زحف الشريف أحمد بن غالب مع جماعات من اليمن (٨٢: ص١١٥) ولم ير الشريف محسن بدا من الاستنجاد بصاحب مصر. ولكن لما مضى موسم الحج ولم يجئ أحد تبين للشريف محسن أن الوسائل مكذوبة من بعض الأشراف فى الحجاز فهدأت الحالة.

وفى سنة (١١٠٢هـ) تفرقت كلمة الأشراف فى الحجاز وخرجوا على الطرق العامة. وأكثروا النهب والسلب وبخاصة فى جهات جدة واشتدت الحالة بالناس حتى أجمع أمرهم أخيرا على الكتابة إلى السلطان يشكون إليه سوء الحالة وما يقع من الأشراف، وأن العساكر السلطانية لا تطيع أوامر الشريف لتهدئة الحالة فلم يكترث الباب العالى للأمر واضطر الشريف محسن أن يتنازل للشريف سعيد بن سعد فى سنة (١١٠٣هـ) فتولى الشرافة للمرة الثانية فسار سيرة عنيفة لا يهاب سلطانا ولا يخضع لقانون، ولم يلبث قليلا حتى جاءه الفرمان من الباب العالى بإقراره فى الشرافة، وقد وقعت فى البلاد فتن كثيرة من جراء قسوته وسوء معاملته للناس والأشراف، ولما ضج العامة من سوء تصرفه رأى العقلاء أن يكتبوا للباب العالى باستبداله فوردت عليهم البشائر بتفويض أمر الديار الحجازية لأبيه الشريف سعد بن زيد وأن يكون ابنه الشريف سعيد نائبا عنه فهدأت الأحوال هدوءا نسبيا، وفى سنة (١١٠٥هـ) كثر الأشقياء والمفسدون فى البلاد فانقطعت الطرق وتفاقم الأمر حتى اضطر الشريف سعد أن يعس فى الليل بنفسه مع العساكر إلى أن انقطعت أسباب الفتن، ولم تهدأ الحالة إلا حين جاءت الأخبار بأن الشريف أحمد بن غالب قد هجم على مدينة

القنفذة واستولى عليها، وأنه فى طريقه إلى مكة فاستنجد الشريف سعد بالباب العالى فبعث إليه بجيش عليه إسماعيل باشا ومعه محمد باشا صاحب جدة ولما علم الشريف أحمد بقدومهما كتب إلى الشريف سعد يعلمه بخضوعه للدولة وأنه قادم للحج وهدأت الأحوال من جديد إلى أن وقعت واقعة بين الشريف سعد وبين محمد باشا صاحب جدّة، فكتب هذا إلى الباب العالى يطلب عزل الشريف وتولية الشرافة لعبد الله بن هاشم ووافق الباب العالى على ذلك ووقعت حروب وفتن طويلة بين الجانبين انتهت بانهزام الشريف سعد وتولية الشريف عبد الله، وكان هذا على جانب من الحزم والسياسة، وقد أراد أن يسير بالبلاد سيرة رشيدة ويقضى على الفتن والثورات كما يقضى على سلطة الأشراف، ولكنه لم يلبث أن هلك فى سنة (١١١٣هـ) بعد أن قضى أربعة أشهر فى الحكم فلما مات طلب الأهلون من الباشا أن يكفيهم شر الشريف أحمد بن غالب الذى أعلن العصيان والفتنة وبعث يتهدد وجهاء الأهلين فقال لهم الباشا: دعوا الأشراف يجمعون على واحد منهم يتولى شرافة البلاد، فقالوا له: كيف يمكن لهؤلاء الناس أن يتفقوا على واحد وكل فرد منهم يطمع فى هذا المنصب والرأى الصواب هو أن يعود الشريف سعد وهكذا كان فقد دخل الشريف سعد إلى مكة وتولاها للمرة الثالثة واستقرت الأمور فترة، ثم عاد الأشراف إلى فتنهم السابقة، مطالبين برواتبهم وجامكياتهم ومعاليمهم مدّعين بأن الشريف سعدا قد حرمهم من ذلك. وساروا نحو الطائف يعيثون فيها فسادا فضاق بهم الشريف سعد ذرعا ثم استدعى رؤساءهم وأعطاهم ما يريدون فهدأت الحالة بعد أن لقى الناس منها عناء كبيرا.

وفى أواخر عام (١١١٣هـ) رأى الشريف سعد أن يتخلى عن منصبه لابنه سعيد وكتب بذلك إلى الباب العالى فى الأستانة فجاءته الموافقة واستقرت الحالة بعض الشىء إلى أن كانت سنة (١١١٥هـ) فانتقض الأشراف على الشريف سعيد وتدخل أبوه بينه وبينهم فلم يقبلوا وبعثوا بعبيدهم ومماليكهم يفسدون فى الأرض وينهبون الأموال ويقطعون السبل فعاد الشريف سعد للسعى بين ابنه وبينهم وتم له ذلك وتعهد بأن يدفع لهم من ماله بعض استحقاقاتهم فقبلوا ذلك على شريطة أن يتغاضى عما وقع منهم من أعمال السلب والنهب، فلم يرض الشريف سعد إلا بمحاسبتهم على أعمالهم التى اقترفوها وإقامة الحد الشرعى وردّ ما سلبوه. فلما علموا بذلك خرجوا من مكة إلى أن حان الموسم وأرادوا أن يعبثوا بالحجاج فتصدى لهم سليمان باشا أمير جدة ونهاهم عن الفساد ووعدهم بأعطياتهم على

شـريطة أن يحفظوا الطرق ويؤمنوا قوافل الحجيج وأبلغ الشـريف فى مكة ما تعهد لهم به فوافق الشـريف على ذلك ولكنهم لم يلتزموا ما تعهدوا به، وقضى الحجاج مناسـكهم وهم فى غاية الخوف، ولم يسـتطع أهل مكة أن يحجوا ذلك العام لأنهم خافوا من الأشـراف ومماليكهم الذين شـيعوا أنهم سـيدخلون مكة ويفتكون بأهلها، ثم إن الشريف بعث إليهم يسـتدعيهم فأرسـلوا إليه وفدا وتناقشـوا واتفقوا على إنهاء هذه الفتنة التى طال أمدها فى محرم سـنة (١١١٦هـ). ولكن لم يمض وقت طويل حتى عاد الأشراف وعبيدهم ومماليكهم إلى ما كانوا عليه من الفسـاد، وكيف يسـتقيم قوم جعلوا الشـرّ ديدنهم والفسـاد طويتهم وهـم يدعـون أنهم أبناء الرسـول ﷺ وأنهم رحمـاء بينهم وأنهم حملـة الخير والحكمة والاستقامة وحفظة الدين، وقد كان بلاؤهم فى هذه المرة شديدا، وتداخل الجند والاسباهية والانكشارية والأعراب فى الحرب واشتد سعيرها واضطر الشريف سعيد إلى إرسال الوسطاء وتعهد بدفع مشاهرات الأشراف فلم يقبلوا وعزموا على الثورة بعد أن ولوا أمورهم الشريف عبد المحسـن بن أحمد بن زيـد ووقعت معركة كبيرة بين الطرفـين حتى احتمى جماعة الشـريف سـعيد بمكة وضاق عليهم الأمر واضطر الشـريف إلى الهرب بنفسه ودخل الثوار مكة وأجبروا الشـريف سـعيدا على أن يتنازل لابن عمه الشـريف عبد الكريم بن محمد، وأقره على ذلك جميع الأشـراف ما عدا الشـريف سعيد وأبوه سعد فإنهما خرجا مغاضبين وأخذا يجمعان الأعراب حولهما لمحاربة الشريف عبد الكريم وجماعته فتمكنا من الاستيلاء على مكة وتسـلط الشريف سعيد من جديد على ولاية الحجاز للمرة الرابعة ولكنه لم يلبث فـى هذه المرة إلا أياما حتى عاد الشـريف عبد الكريم فتغلـب عليه، وهلك الناس مهلكة عظيمة من جراء هذه المآسـى حتى قتل فى إحدى المعارك التى وقعت بين الطرفين نحوا مـن ألف ومائتى رجل (٨٢: ص١٤٤)، وظلت الأمور قلقة حتى أواخر سـنة (١١١٦هـ) حين مات الشريف سعد واستقر ابنه الشريف سعيد فى الشرافة للمرة الرابعة واستقامت له الأمور فترة، ثم رجع الأشـراف ومماليكهم إلى السلب والنهب وكثرت الاضطرابات وكثيرا ما كانت تتعطل الشـعائر الدينية من صلوات وحج، وربما قتل الناس فى المسـجد الحرام وباتوا فى خوف ووجل شـديدين، ومما زاد الأمر اضطرابا حركات الانكشارية التى كانت تؤرج النار ضراما وتفسـد البلاد ولا أحد يسـتطيع الوقوف فى سبيلهم والحد من ظلمهم، وفى سـنة (١١١٧هـ) رجع الشـريف عبد الكريم إلى مكة ومعه عساكر مصر وعساكر الوزير

سليمان باشا ولما وصلوا المسجد الحرام وفتحت الكعبة وجدوا القاضى والمفتى والأعيان وأهل المناصب فى محلهم على العادة المألوفة، ولما استقر الشريف فى مكانه قدموا إليه الكسوة السلطانية وهى مكونة من قفطان (أى جبة) بالسمور والفرو، ثم أخذ يُنعم على الحاضرين بالكسى، والقفاطين والتشاريف. وقرئ الأمر السلطانى بتسمية الشريف عبد الكريم، وهذه هى المرة الثالثة التى يتولى فيها. ولما تمت المراسيم جمع الأشراف وسليمان باشا وشيخ الحرم والقاضى والمفتى وكبار المفتين والعلماء وآغوات العساكر والأعيان وقال لهم فيما قال: قد شاهدتم ما وقع من التعب والشقاق حتى آل الأمر إلى الحرب وتعبنا نحن والرعايا وعمت الفتن وأصيب فيها الغنى والفقير وذهب بسببها الأموال والرجال والموجب لهذا كله زيادة المعالم الخارجة عن المعتاد التى عجز عن تحصيلها العباد والبلاد فكل ملك يتولى، يحصل بينكم وبينه التعب والمشقة بسبب المعلوم. فالقصد منكم أن تنظروا فى مدخول البلاد وتوزعوه أرباعا فثلاثة أرباع تكون بينكم، والربع لى ولجماعتى وعسكرى ومهمات البلد، فرضى الجميع بما قاله وسجل القاضى كلامه فى حجة شرعية (٨٢: ص ١٥٧) وتم الصلح وانصرف الجميع إلى أعمالهم، ولم تمض فترة حتى وردت الأنباء بأن الشريف سعيدا قد جمع جموعا من البدو والمماليك يريد بهم مكة فاستعد له الشريف عبد الكريم والتقى الجمعان فتفرق جماعة الشريف سعيد ورجع الشريف عبد الكريم إلى مكة وبعث بعض جنده للحاق بالشريف سعيد الذى فر إلى الطائف فردهم ووطد أمره فى الطائف وجمع جمعا أراد به الزحف إلى مكة وعلم بذلك الشريف عبد الكريم فعاجله وشتت جموعه واستولى على الطائف ولكن سعيدا تمكن من أن يستعيدها بعد أن غادرها عبد الكريم. فلم يبقى فيها إلا مدة فرض فيها على أهلها بعض المال فأخذه وهرب، وفى سنة (١١٢٠هـ) انضم إليه بعض الأشراف الذين غضبوا من الشريف عبد الكريم وعزم على الاستيلاء على مكة فردهم الشريف عبد الكريم إلى أن كانت سنة (١١٢٣هـ) فجمع جموعه واتجه نحو مكة فدخلها. ووردت الرسل بأن السلطان العثمانى قد أنعم عليه بالشرافة فخرج عبد الكريم إلى مصر. أما سعيد فإنه شرع بعد دخوله على مكة فى توطيد أركانه وإصلاح ما فسد وسار بالناس سيرة حسنة كأنه يريد التكفير عن سيئاته وظل على ذلك إلى أن مات فى سنة (١١٢٩هـ) فتولى الأمر من بعده ابنه عبد الله وسار بالناس فى مبدأ أمره أحسن سيرة ثم ما لبث أن عدل عن النهج القويم وأفسد البلاد فتجمع الناس ونادوا بعزله وتولية أخيه

علــى فى فجر عام (١١٣٠هـ) وكتبوا بذلك إلى الســلطان العثمانى فوافقهم وهدأت الحالة ولكنها ما لبثت أن اضطربت للخلاف الذى نشب بين الشريف على وسائر الأشراف الذين خرجوا من مكة مغاضبين لقطع معالمهم وعوائدهم المقررة، فلما قدم الحجيج الشامى وأميرهم الوزير الحاج رجب باشــا شكوا إليه أمرهم وأنهم يريدون عزل على وتولية الشريف يحيى ابــن بركات فلما طلبهم وعهد بالأمر إلى الشــريف يحيــى، وكان يحيى رجلا حازما قويا ســار بالبلاد سيرة حسنة على أن كانت ســنة (١١٣٢هـ) فتغلب عليه الشريف مبارك بن أحمد وفى عهده فى سنة (١١٣٤هـ) وقعت الفتنة الكبرى بين آغوات الحرم المدنى وبين أهل المدينة حتى تحصن الآغوات فى المســجد وأخذوا يطلقون النار على الأهلين من المنائر فتعطلت الصلاة وقتل من الأهلين جماعات إلى أن عزل الشريف مبارك وتولى الشريف يحيى للمرة الثانية ولم يلبث فى شرافته هذه إلا مدة حتى تنازل عنها لولده الشريف بركات فى ســنة (١١٣٥هـ) فغضب الأشراف من هذا التصرف وأعلنوا عصيانهم، وذهبوا إلى الشريف مبارك وانضموا إليه وحرضوه على إعلان الثورة فعزم الشــريف بركات على تأديبهم وخرج هو وإسماعيل باشــا أمير جدة للقائهم والتقى الجمعان فى المحرم ســنة (١١٣٦هـ) فانهزم الشريف بركات وجماعته وانتصر الشريف مبارك ولقيت البلاد بلاء عظيما من هذه المحنة وغلت أســعارها وثارت العامة على الشــريف مبارك طالبة إليه أن يترك منصبه فخرج من مكة وتولاها الشــريف عبد الله للمرة الثانية فأســاء السيرة وظلم الرعية وفرض على التجار من ســكان مكة وجدة والطائف والواردين من جميع الأقطار أموالا جسيمة وضرائب باهظة وقاســى الناس منه ومن الأشراف ويلات حتى كانت سنة (١١٤٠هـ) فهطلت أمطار كثيرة ورخصت الأســعار وكثرت الخيرات واســتراح الناس واســتعادوا بعض نشاطهم واستمرت الأمور إلى ســنة (١١٤٣هـ) وفيها هلك الشــريف عبد الله وتولى مكانه ابنه الشريف محمد واســتمر إلى ســنة (١١٤٥هـ) وكان رجلا حسن الإدارة والسيرة فتصرف بالبلاد وأحسن إلى الحجاج ولكن الأشراف لم يرضوا عنه فتخلى عن منصبه للشريف مسعود بن سعيد ولم يبق إلا فترة حتى تنازل عنه للشريف محمد بن عبد الله ثم اضطر هذا إلى أن يخلع نفسه ويتولى الشــريف مسعود، فلقيت البلاد من هذا التنقل بلاء وفوضى، ولما رأى ذلك زعيم الأشراف محسن بن عبد الله تألم له أشد تألم فسافر إلى الشام مهاجرا مع أمير الحاج الشامى سليمان باشا العظم وهناك مات[1].

(١) خلف من الأولاد الشرفاء عونا، وأحمد، وحسنا، وعبد الله، وعون هو والد أشراف مكة الهاشمية.

وقد ظل مسعود في شرافته إلى سنة (١١٦٥هـ) وفيها مات فتولى الولاية من بعده أخوه الشـريف مساعد وسار بالناس سيرة مضطربة إلى أن جاء الحجاز عبد الله باشا أمير الحاج الشامي في سنة (١١٧٢هـ) فبلغه سوء سيرته وما تقاسيه الناس منه فعزله وولى أخاه جعفرا فلم يقبل جعفر وظل الشريف مساعد إلى سنة (١١٨٤هـ) فتولى الأمر من بعده أخوه الشريف عبد الله ولم يطل عهده بل تنازل لأخيه الشـريف أحمد، وفي أيامه وقعت الفتنة الكبرى بين الشـريف أحمد وبين محسـن بك أبي الذهب الذي بعثه صاحب مصر ليعزل الشريف أحمـد ويولي الشـريف عبد الله مكانـه، فوقعت البلاد في فوضى وكثر السـلب والنهب، وانتشر البدو الذين جاءوا مع الشريف عبد الله في البلاد وهم يعيثون فيها الفساد وينهبون الأهلـين، إلى أن انتصـر الجند المصري مع أبـي الذهب ودخلوا مكة والشـريف عبد الله يتقدمهم في سـنة (١١٨٤هـ) ولقد لقي الحجاز مع أبي الذهب وجنوده تعبا ومشقة فإنهم نهبوا الدور والقصور، وأساؤوا معاملة العلماء والوجوه، ولم يتركوا البلاد إلا بعد أن ساءت أحوالها، ولما غادرها اجتمع الأهلون وخلعوا الشريف عبد الله وأعادوا الشريف أحمد وأول عمل قام به هو إحراقه بعض دور الإشـراف الذين اتهمهم بإحراق قصر دار السـعادة، وهو مقر الشـرافة، وبهدم بعض قصور البلد وأبوابها، ولم يكن الشـريف أحمد أحسن سيرة من سـلفه فقد أباح لجنده نهب بيوت الناس والاسـتيلاء على أموالهم في مكة وجدة والمدينة فأفسـدوا الحرث والنسل واشـتد كرب الأهلين وعم الغلاء حتى أكل الناس القطط وشربوا الدمـاء، ولم تكن حال البوادي خيرا من حـال الحواضر فقد ضج أهلها وظلت الأمور قلقة إلى سـنة (١١٨٥هـ) حين قدم الحجيج المصري الشامي وأحضروا معهما الأقوات والأقمشة فانفرجت الأزمة. وفي سـنة (١١٨٦هـ) ثار الشـريف مسرور بن مساعد على عمه الشريف أحمد وأخرجه من مكة بعد أن هزم جنده واسـتولى على الشـرافة فذهب عمه يسـتصرخ القبائل ليعود إلى ولايته ووقعت بينه وبين ابن أخيه خمس عشـرة موقعة (٨٢: ص ٢٠٧) أهلكت الناس ولم تنته هذه المواقع إلا في سـنة (١١٩٣هـ) حين تغلب مسـرور على عمه وفرق جنده وقبض عليه أسيرا مهانا في (ينبع) حيث لم يبق إلا أياما مات بعدها هو وولده واستقرت الأمور للشريف مسرور فأخذ يعمل على تهدئة الحالة والضرب على أيدي العتاة والمفسـدين وقطاع الطرق، ولما اسـتتب له الأمر عزم على الزواج فخطب ابنة مولاي محمد سـلطان المغرب الأقصى وزفت إليه في سـنة (١١٩٣هـ) مع كثير مـن الهدايا والتحف،

وكانت سنة خير على الأهلين وفى سنة (١١٩٤هـ) عزم الشريف على زيارة المدينة المنورة وكان معه ثلاثة آلاف وخمسمائة جمل ومائتان وخمسون خيالا وخمسة آلاف من العربان وخمسمائة من الأشراف، وكثير من الكراع والأموال فلما وصل إلى (بدر) ثار أهلها وحاولوا الفتك به وبجماعته فتغلب عليهم وقتل نفرا منهم، ثم سار حتى المدينة فخاف أهلها منه وأضمروا له الشر لما بلغهم عن قسوته على الرغم من كثرة الأموال التى نثرها عليهم ووقعت فتنة بين الأهلين والجنود واضطر الشريف أن يترك المدينة إلى مكة وساد الهرج والمرج وعمت الفوضى إلى أن هلك فى سنة (١٢٠٢هـ).

انتهى بفضل الله سبحانه وتعالى